

بيزنطة وفارس

قراءة جديدة لآخر جولات الصراع

بين القوتين العظميين في العصور الوسطى

التمهيد:

مثلت الإمبراطورية الرومانية القديمة ووريثتها الدولة البيزنطية، ودولة الفرس القوتين العظميين في أواخر العصور القديمة وشطراً كبيراً من العصور الوسطى، وعلى مدى حقبة طويلة كان الصراع محتدماً والحدود مشتتة والجنود مستنفرين والعداء مستحكماً بين الدولتين. وقد شهد هذا الصراع جولات عديدة، تبادل فيها الطرفان الهزائم والانتصارات، وتغيرت الحدود فيها أكثر من مرة ولم تكن مستقرة، وكان يحددها ميزان القوة والاستقرار في كلا الدولتين، وكثيراً ما كانت تتعرض للمد والجزر، فبالقوة والاستقرار السياسي في أحدهما وحدث التراجع والهزات السياسية في الأخرى، يتغير خط الحدود، ويتغير شكل العلاقة ويتجدد التنافس والصراع بين الدولتين العظميين.

وهذا البحث يتناول جانباً من الصراع البيزنطي / الفارسي

الدكتور عمر

يحيى

محمد*

* ماجستير في تاريخ العصور الوسطى - جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.
- دكتوراه في التخصص نفسه والجامعة نفسها.
- تولى عدة مناصب في الصحافة المحلية.
- يعمل الآن رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز.

البرقية

ذو الحجة ١٤٢٦هـ
يناير ٢٠٠٦م

السنة الثامنة
العدد الثاني والثلاثون

ويركز في قراءة فاحصة على الفصل الأخير منه، والذي بدأ باجتياح الفرس للأراضي البيزنطية واحتلالهم لأجزاء كبيرة منها ووصولهم إلى تخوم العاصمة البيزنطية القسطنطينية في عهد إمبراطورها الشهير هرقل، وجهود هذا الإمبراطور في تجاوز الهزائم المتتالية إلى انتصار حاسم تمثل في استعادة الأراضي البيزنطية وإنهاء التفوق والسيطرة الفارسية تمهيداً لإخراجها من ساحة الصراع الدولي لتلك الحقبة نهائياً.

كما يبحث في الأسباب التاريخية التي أدت إلى نشوب هذا الصراع واحتدامه بين الدولتين، وهي أسباب تعددت بين تلك التي تعود إلى منطق القوة والقوة المضادة، وأخرى تعود إلى النزوع للنفوذ والسيطرة الحدودية، ناهيك عن تلك الأسباب الاقتصادية التي تركزت حول طرق التجارة الدولية، أو تلك التي تعود إلى الاختلاف الديني والثقافي بين الدولتين والقوتين.

الأوضاع السياسية والعسكرية للإمبراطورية البيزنطية والدولة الفارسية في أواخر القرن السادس الميلادي

أولاً: الإمبراطورية البيزنطية :

مرت الإمبراطورية البيزنطية في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي بأوضاع سياسية وعسكرية حرجة سبقت المرحلة التي وصل فيها الإمبراطور البيزنطي هرقل (Heraclius) ومهدت لها وألقت بظلالها وتأثيراتها مدة طويلة على حكم هذا الإمبراطور الذي نحن بصدد دراسة الصراع الذي ساد مع الفرس خلال مدة حكمه أو الجزء الأكبر منها .

فمن الناحية السياسية سادت أجزاء مختلفة من الإمبراطورية عدة حركات تمرد وعصيان عسكري ضد الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) أدت في النهاية إلى

خلعه عن العرش. وتعقبه بعد فراره من العاصمة وقتله هو وخمسة من أبنائه^(١). وكان سبب هذا التمرد المعاملة السيئة التي كان مورييس يعامل بها رجال جيشه وتأخير روايتهم وعجزه عن إيقاف المد السلافي الذي تعرضت له الإمبراطورية في هذه الحقبة^(٢). ورفضه افتداء الأسرى البيزنطيين لدى ملك الآفار مما أدى إلى قتلهم. وقد اختار قادة التمرد قائداً من بينهم يدعى فوكاس (Phocas)، وأعلنوه إمبراطوراً. وتجاوز فوكاس الحد في أعمال الانتقام والقتل والإبادة والتعقب لرجال وأسرة الإمبراطور السابق ولكل الفعاليات السياسية والدينية في العاصمة مما جعل القسطنطينية تشهد أزمة سياسية طاحنة من جراء هذه السلسلة من أعمال القتل والتعذيب. وجعل كسرى ملك الفرس يجد في ذلك مبرراً لإنهاء حقبة السلام مع الإمبراطورية البيزنطية واستئناف القتال معها بحجة أخذ الثأر لصديقه الإمبراطور مورييس^(٣).

(١) CAMB, MED, HIST.Vol.II. P.254.

(٢) تعرضت الإمبراطورية طوال حقبة متتالية منذ القرن الثالث الميلادي إلى موجات متكررة من الغزوات الجرمانية أو مادرج على تسميتهم بالبرابرة، وكان من هؤلاء القوط بقسميهم الشرقي والغربي والهون والوندال والفرنجة والمبارد وغيرهم. وفي هذه الحقبة تعرضت لموجة الآفار والسلاف الذين درجت المصادر على تسميتهم بالصقالية وكانوا خلال هذه الحقبة دائمي التهديد لعاصمة الإمبراطورية. انظر : HALDON,J.F, Byzantium in the seventh century, Cambridge,1997. P.31.

(٣) الواقع أن الأوضاع التي سادت في بيزنطة هي التي دفعت كسرى ملك الفرس لمهاجمتها واستئناف القتال معها . وسنتحدث في الصفحات التالية عند الحديث عن أوضاع مملكة الفرس عن طبيعة العلاقة التي سادت بين الإمبراطور البيزنطي مورييس وكسرى والمصاهرة والصدقة التي ربطت بينهما وعن حقبة السلام التي سادت بين الطرفين في عهدهما، وهي الحقبة التي اتخذها كسرى سبباً لاستئناف القتال مع بيزنطة واجتياح أراضيها. انظر Ostrogorsky, G: History of the Byzantine stat, trans from German by: Joan hassey, second edition London, T. J. press.1968.P.67

إضافة إلى هذه الأخطار الخارجية التي تمثلت في الفرس شرقاً والآفار والسلاف شمالاً، فإن الأوضاع الداخلية لم تكن بأحسن حالاً، إذ شهدت مدة حكم الإمبراطور فوكاس موجة من المؤامرات المتتالية التي قادها بقايا أسرة موريس وكبار موظفي الإدارة وقيادات بعض الأسر الارستقراطية والقادة العسكريين^(١).

كما عامل الإمبراطور فوكاس الأحزاب السياسية^(٢) معاملة سيئة جعلته يفقد شيئاً فشيئاً التأييد الشعبي له فتارة كان يحابي الخضر ثم يعاملهم معاملة سيئة، وتارة يحابي الزرق، وتارة ينقلب على الحزبين معاً. وقد بلغ الصدام بين الزرق والخضر الذروة خلال حكم فوكاس وعمت المعارك والمنازعات بينهما كل مكان وامتدت من القسطنطينية إلى مدن الإمبراطورية الأخرى.

وفضلاً عن ذلك فإن الأحوال الاقتصادية شهدت تدهوراً أيضاً، ذلك أن التقدم الفارسي في آسيا الصغرى والاستيلاء على أجزاء من سوريا ومابين النهرين، حرم الإمبراطورية من أموال الضرائب، كما أن هجمات السلاف وما ألحقوه

(١) ليلى عبد الجواد : الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل - القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٨٥م، ص ٤٩-٥٢.

(٢) تعود بداية هذه الأحزاب إلى الألعاب الرياضية، فقد كان يقع بقلب القسطنطينية ميدان لسباق الخيل Hippodrome يهرع إليه المواطنون لمشاهدة سباق الخيل والعربات، وكانت هناك أربع فرق اندمجت في فريقين هما الزرق والخضر، وسرعان ما تحولت أحزاب الملعب هذه إلى أحزاب سياسية نصبت نفسها للدفاع عن الشعب، واشتهرت بنزاعاتها المختلفة السياسية والدينية، وقد ارتبطت هذه الأحزاب بمصالح الطبقات المختلفة، وصار لها أهمية خاصة في توجيه السياسة البيزنطية، عن هذه الأحزاب وتطورها . انظر : السيد الباز العريني . الدولة البيزنطية، ص ٧٩ . رانسيमान، الحضارة البيزنطية ص ٧٥. أسد رستم : الروم ، ج١، ص ١٧١.

بأراضي الإمبراطورية من تخريب وتدمير، أدى إلى هجرة السكان، مما كان له أثره السيئ على الاقتصاد، أدى في النهاية إلى انتشار الجوع والنقص في إمدادات الطعام وانتشار الأمراض^(١).

ورافق هذه الأزمة الاقتصادية سوء الأحوال المناخية، مما أدى إلى تلف المحصول الزراعي بسبب شدة البرد وانقطاع إمدادات القمح من أفريقيا ومصر، وعانت الطبقات الفقيرة في المدينة، بصفة خاصة تلك التي كانت تتمتع بالحصول على الخبز المجاني، من الحرمان والجوع^(٢)، وأدى كل ذلك إلى مضاعفة الاستياء العام في العاصمة والمدن الأخرى.

أما على الجانب العسكري، فإن الأزمة كانت أكثر فداحة، إذ أن هذا الجيش القوي المدرب الذي تمتعت الإمبراطورية بحمايته قد أخذ شأنه يتناقص بسبب الهزائم المتتالية التي مني بها، وفي أيام فوكاس لم تعد له الكفاءة القتالية المطلوبة لمواجهة الأزمات الخارجية والداخلية. هذا فضلاً عن أن نظام الجيش كان يقوم أساساً على تجنيد المرتزقة، وقد أصبح هذا النظام مستحيلاً عندما أفلست خزانة الدولة واضطربت أمورها، كما لم يعد في استطاعة الإمبراطورية الحصول على الجنود من آسيا الصغرى التي كانت تمثل مستودعاً دائماً للرجال^(٣)، إذ أصبحت

(١) موس . ميلاد العصور الوسطى : ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، سلسلة الألف كتاب رقم ٦٢٣ - القاهرة : عالم الكتب، ١٩٦٧م، ص ٢٣٠.

(٢) د . سعيد عبدالفتاح عاشور . أوربا العصور الوسطى - ط ٥ - القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م، ج ١، ص ١٢٤.

(٣) فيشر . تاريخ أوربا العصور الوسطى : ترجمة محمد مصطفى زيادة والباذ العريني - القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٩م، ج ١، ص ١

أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى تحت سيطرة الفرس، وبالتالي تناقص عدد الرجال اللاتقيين للخدمة العسكرية فضلاً عن انتشار شعور الكراهية بين الناس للجندية، فترك الجنود صفوفهم ومواقعهم ورتبهم ولجأوا إلى الأديرة ليصبحوا رهباناً على أمل أن يجدوا الأمن والسلام^(١).

هكذا أصبحت الإمبراطورية في هذه الفترة الحرجة أسيرة لهذه الأوضاع المتردية التي شملت مختلف جوانب الحياة فيها. فمن أزمات في الحكم، إلى صراع دموي عنيف بين مختلف الطبقات، إلى أعداء خارجيين يحيطون بالإمبراطورية ويناشونها، إلى انحدار عسكري واقتصادي، وتردٍ لمستوى الحياة وأنماطها داخل العاصمة وفي كل أنحاء الإمبراطورية^(٢).

لقد اعتبرت مدة حكم الإمبراطور فوكاس بما شهدته من دموية وصراع داخلي، وتراجع خارجي من أسوأ الحقب في حياة الدولة البيزنطية، إذ فقد الحكم هيئته في الداخل والخارج، وتكالبت عليه الظروف السيئة التي أضعفت من مقاومته وجعلت استمراره مستحيلاً، وكان الأعداء يطبقون عليه من الداخل والخارج. في ظل هذه الأوضاع جاء الإمبراطور هرقل سنة (٦١٠م)، مُخلصاً الإمبراطورية من حكمها الذي انهارت الأوضاع في مدته، ومحاولاً إنقاذها من أعدائها الخارجيين الذين وجدوا في هذه الأوضاع وذلك الانحدار فرصتهم الذهبية، ومن الفوضى الداخلية التي كانت ضاربة أطنابها^(٣).

Ostrogorsky, OP.Cit.P.83. (١)

THEOPHANES, The Chronicle of Teophanes confessor, Ed. By C.Mango and R.scott, OXFORD 1997, P.427. (٢)

HALDON, op.cit. P.43. (٣)

وصلت استغاثة الفعاليات السياسية والدينية والمواطنين في القسطنطينية إلى هرقل^(١) أرخون أفريقيا تستجد به.

وكان لبعد ولاية شمال أفريقيا، وعدم تأثرها بالأحداث التي جرت في القسطنطينية الأثر الحاسم في سرعة الاستجابة حيث أبحر هرقل الابن يقود جيش الإنقاذ، والذي سرعان ما حقق الانتصار على فوكاس الذي لم يبق له في العاصمة كثير من الأنصار^(٢).

وتذكر المصادر أن فوكاس عندما لاحت هزيمته جمع كل ثروات وأموال الدولة وأبحر بها في سفينة إلا أنها سرعان ما غرقت^(٣) ثم تكاثف حوله الثائرون الذين ألقوا عليه القبض وسلموه إلى هرقل الذي أمر بقتله وأفراد أسرته وأعوانه^(٤).

وتسلم هرقل في الخامس من أكتوبر سنة (٦١٠م) إمبراطورية متهاوية، أراضيها مسلوبة، وخزائنها خاوية، والاضطرابات تلفها من كل جانب، ولم يكن أمامه

(١) ولد هرقل أرخون أفريقيا - أي الحاكم العسكري العام - والذي سيكون والد إمبراطور المستقبل، والذي يحمل نفس الاسم عام (٤٥٠م) لأسرة أرستقراطية من أصل أرمني وظهر كواحد من خيرة ضباط الإمبراطورية في عهد الإمبراطور موريس ، واشترك في الحروب ضد الفرس ومكافأة له على بلائه عينه موريس حاكماً عسكرياً لأفريقيا عام (٥٩٩م)، وكان محبوباً في مقاطعته لدرجة أن فوكاس لم يجزؤ على عزله كما فعل مع أرخون إيطاليا. وبدأت خطته لمحاربة فوكاس بأن امتنع عن إرسال الضرائب والقمح إلى القسطنطينية، وأرسل من هناك ابنه هرقل وابن أخيه نيكثاس إلى القسطنطينية. لمزيد من التفاصيل عن هرقل أرخون أفريقيا وأصل الأسرة وهل هو قبادوقي أم أرمني انظر Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Cambridge, Mass.: The University of Wisconsin Press, 1970. Vol. 1, P.235.

(٢) Theophanes, op. cit. P.426.

(٣) بتلر، الفريد. فتح العرب لمصر: ترجمة محمد فريد أبو حديد، المركز العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م، ص ٣١.

(٤) Ostrogorsky, op. cit. P.95.

سوى العمل بدأب على رأب هذا الصدع الذي أحاط بالإمبراطورية، وإعادة بناء الاقتصاد المنهار، وإيجاد جيش قادر على الدفاع عنها، وإعادة الهبة إلى سلطة الإمبراطور. وقد تصدى الإمبراطور لأهم القضايا الملحة التي أصابت الإمبراطورية وهي الحالة الاقتصادية، وحالة الإفلاس العامة التي عانت منها الخزينة، واتخذ لذلك عدة إجراءات منها تحديد عدد موظفي الكنيسة والإدارة الإمبراطورية، وفرض ضرائب جديدة وإلغاء الخبز المجاني الذي كانت تلتزم به الحكومة^(١).

ثانياً: دولة الفرس :

كانت الأوضاع في فارس مختلفة بعض الشيء، فبعد مدة وجيزة من الاضطرابات التي كان سببها ذلك الانقلاب العسكري الذي تعرض له الملك كسرى أبرويز (المظفر) ملك فارس عام (٥٩٠م)، وتمرد أحد قاداته عليه ويدعى بهرام شوبين أو (جوبين) Bahram Chubin، والذي يعرف بالرجل الخشبي^(٢). فبعد نجاح حركته الانقلابية، أعلن بهرام جوبين نفسه ملكاً على فارس، ولكنه لقي معارضة شديدة من النبلاء الذين كانوا يدينون بالولاء لأسرة كسرى^(٣).

وقد سادت الفوضى أجزاء فارس المختلفة، وفشل بهرام جوبين في إلقاء القبض على كسرى أبرويز الذي لم يجد بداً من الفرار إلى بيزنطة والالتجاء إلى إمبراطورها، رغم العداء الكبير والحروب التي كانت محتدمة بينهما. ومن هيروبوليس Hieropolis (منبج) كتب كسرى خطاباً إلى الإمبراطور البيزنطي

(١) نورمان بينز . الإمبراطورية البيزنطية: ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد - القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٥٧م، ص ١٥٧.

(٢) آرثر كريستس . إيران في عهد الساسانيين: ترجمة يحيى الخشاب - بيروت : دار النهضة العربية، د.ت، ص ٤٢٦.

(٣) طه باقر وآخرون . تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٢م، ص ١٥٤.

موريس طالباً مساعدته وعونه في استرداد عرشه وعرش آبائه وأسلافه الذي اغتصبه بهرام^(١).

ووجدها الإمبراطور موريس فرصة لمسألة الفرس، خاصة وأن مفاوضات السلام كانت تدور وقتها بين بيزنطة وفارس. وقد عمل الملك الجديد على إخفاقها ووجد موريس أن في مساعدة كسرى قطع لطريق دعاة استمرار الحرب مع بيزنطة في فارس، وتقديم معروف يمكن أن يكون له أثره في المستقبل، خاصة وأن أوضاع فارس في ظل قيادة بهرام لم تكن مستقرة، بل اكتفتها سلسلة من الاضطرابات والمعارك، مما يعني أنه لن يستطيع الاستمرار في الحكم لاسيما وأن عدداً كبيراً من رجال الدين والنبلاء رفضوا مبايعته^(٢).

وقد تمثلت مساندة موريس إلى كسرى بذلك الجيش الإمبراطوري الذي رأسه القائد نارسييس Narses، والبطريق يوحنا Jean لمساعدته في استرداد ملكه، بالرغم من معارضة السناتو (مجلس الشيوخ) الذي كان يرتاب في أمر الفرس ولا يطمئن إليهم^(٣).

وفي عام (٥٩١م) عبر كسرى أبرويز نهر دجلة وهزم بهرام جوبين واسترد عرشه، وأرسل إليه موريس الهدايا وتزوج كسرى أبرويز ابنة الإمبراطور موريس، وكانت تسمى ماري أو ماري Marie التي بعث معها موريس من الجهاز والأمتعة مايند عن الحصر^(٤).

(١) ابن العبري. تاريخ مختصر الدول - بيروت، ١٩٥٨م، ص ٩١.

(٢) آرثر كريستنس، مرجع سابق، ص ٤٢٨.

(٣) ليلي عبد الجواد، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٤) الطبري. الرسل والملوك: تحقيق أبو الفضل إبراهيم - القاهرة، ١٩٦٨م، ج ٢، ص ١٧٦.

وباسترداد كسرى لعرشه عاد الاستقرار إلى دولة فارس، واستمر السلام بين الدولتين نتيجة لذلك العون الفعال الذي قدمه الإمبراطور موريس لكسرى، بل وحصلت بعض الانفراجات في العلاقات كان من أهمها تحسن معاملة دولة الفرس للنصارى الموجودين على أراضيها أو أولئك الذين كانوا على الحدود بين الدولتين وكانوا محل اضطهاد دائم من قبل الفرس^(١).

وإذا ألقينا نظرة سريعة على الأوضاع الاقتصادية والعسكرية لدولة فارس في تلك الحقبة نجد أنها تمتعت بنهضة اقتصادية وعسكرية منذ ارتقاء كسرى الأول (أنوشروان) العرش سنة (٥٢١م). بل إن هذا الارتقاء يعد بداية لأزهى عصور الدولة الساسانية، فقد تعددت جوانب الإصلاح التي رافقت هذا الجهد، وكان منها ما يتعلق، بنظام الحكم والحد من سيطرة النبلاء، وكذلك بعض الإصلاحات الاجتماعية التي تناولت حياة الأسرة والمجتمع^(٢).

وقد اتجه كسرى إلى إصلاح نظام الضرائب، لأن الطريقة التي كانت تجبى بها الضرائب - عقارية وشخصية - لم تكن فحسب قليلة الفائدة للملك فقط، بل سببت كثيراً من المصاعب للممولين أيضاً. فمسحت الأراضي المزروعة بدقة، وحدد ما يدفع عنه المال منها، واتخذ هذا النظام وسيلة لتنظيم الضريبة العقارية، واختار الملك بنفسه أولئك الذين عهد إليهم بجمع الضرائب ممن عرف عنهم النزاهة والاستقامة^(٣).

وكان هدف كسرى من هذه التعديلات الضريبية هو القضاء على الظلم الذي

(١) Theophanes, op.cit. P.396.

(٢) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٣٥٠.

(٣) طه باقر. تاريخ إيران القديم، ص ١٠٧.

كان يقع على الناس عادة من تعسف الجبابة، كما كان يهدف إلى توفير الأموال اللازمة التي تعين الدولة على الدفاع عن أراضيها سواء من الأعداء الخارجيين أو الداخلين، وتكون على أهبة الاستعداد، بدلاً من أن تضطر إلى ذلك عند حدوث الأزمات^(١).

كما تبع إصلاح الوضع المالي للدولة، إصلاح حربي جديد. فقد كانت أسر النبلاء حتى ذلك الوقت، هي التي تتكون منها نواة الجيش، وكانوا مجبرين على القيام بوظيفة الجندي بلا أجر، بل كان عليهم أن ينفقوا على أسلحتهم، ولكن كسرى تفقد الأساورة (الفرسان) فمن لم يكن له منهم يسار قواه بالدواب والعدة وأجرى لهم مايقويهم^(٢).

وكانت نخبة الجيش الفارسي تتكون من الفرسان الدارعين (الفرسان النبلاء)، والذين كان لهم المقام الأول في المعارك، وكان النصر يتوقف على قوتهم وشجاعتهم قبل كل شيء، وامتازت الفروسية بنظامها الحربي وضبطها وكذلك بالتمارين المتواصل وعددها^(٣).

وكان الفرس يلقون الرومان بأفواج منظمة من الفرسان الدارعين في صفوف كثيفة كل الكثافة، وكان بريق الدروع التي كانت تتبع اتجاه الجيش يعكس هيبة تبهر الأبصار^(٤).

وقد وصف أحد كتاب الرومان المعاصرين فرق الفرسان بقوله : (كانت فرق الفرسان كأنها صيغت من حديد وقد غطى جسد كل منهم بألواح ملتصقة به إلى

(١) الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص ١٤٧.

(٢) آرثر كريستنس، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٤) HALDON, op.cit. P.210.

درجة تجعل مفاصل الدرع الحديدية الصلبة تتحرك في يسر وفقاً لحركة أعضاء الجسد، وكان للوجه قناع يحميه، وهكذا كان من المتعذر تصويب سهم إلى الفارس ما لم يسدد نحو الفتحات الصغيرة قبالة العينين أو الثقبين الدقيقين أمام الأنف اللذين كان يتنفس الفارس منهما، وكان بعض الفرسان المسلحين بالحرايب، يقفون بلا حراك حتى ليظن أنهم شدوا إلى سلاسل من حديد وبجانبهم يقف الرماة وقد مدوا أذرعهم ليشدوا الأقواس المرنة بحيث يلمس الوتر الجزء الأيمن من صدورهم بينما السهم معلق في أيديهم اليسرى، وكان السهم ينطلق بضغط محكم بالإصبع فيدوي في الفضاء ويصيب من يصيبه^(١).

وكان لدى الفرس فرقة من الفرسان المختارين تسمى "فرقة الخالدين" وهي تتكون من عشرة آلاف رجل، كما كانت هناك فرق أخرى تميزت بالجرأة وتحدي الموت هي فرقة "الفدائيين"^(٢).

وكانت الفيلة تتخذ مكانها خلف الفرسان، وكانت أصواتها ورائحتها ومناظرها المخيفة تلقي الذعر في خيل العدو، وكان الفيالة يركبون وفي أيديهم اليمنى سكاكين طويلة المقابض، فإذا ما انزعج الفيل وكان هذا يحدث أحياناً فينقلب يتخبط في صفوف الفرس ويدوسهم فإن الفيال يبادر إلى قتله بأن يغمد السكين في عظام رقبته^(٣).

١ - آمين مارسيلين Ammien Marcellin ، وهو أحد المصادر الحربية المهمة للحروب بين الرومان والفرس، حيث يصف بعض الحروب التي شهدا بنفسه في بعض الجولات، انظر روايته في كتاب إيران في عهد الساسانيين، لآرثر كريستس، عدة صفحات.

(٢) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة نقلاً عن آمين مارسيلين.

أما مؤخرة الجيش فكانت مؤلفة من المشاة، وكانوا من أهل القرى، وكانوا يتخذون جنداً لحفظ النظام، وكانوا جنوداً غير مهرة، وفي المعارك الكبيرة التي كان يقودها الملك بنفسه كان يحمل له عرش كبير يوضع وسط الجند ويلتف حوله خدمه وحاشيته وفرق من الجند كان عليها أن تدافع عنه حتى الموت^(١).

وفي زمن السلم كانت الأسلحة ومعدات الحرب تحفظ في المخازن والمخابىء، وكانت الخيول موضع عناية خاصة، وكان الطبيب البيطري الخاص بها موضع عناية خاصة، وكانوا يجمعون له الأعشاب ليستخدمها في علاجها، وأما عن تموين الجيش من اللحم واللبن والخبز فإنها كانت توزع يومياً على المحاربين بالتساوي^(٢).

وعلى طريق الإصلاح العسكري قام كسرى بالعناية بكل هذه الأمور وتطوير ما يحتاج إلى تطوير، وكان همه إحداث تغييرات في القيادة العليا حتى لا يتعرض لخianat أو انقلابات من رجال الجيش^(٣).

وبمقارنة وضع الدولتين نجد أن دولة فارس كانت تتمتع بالاستقرار وقوة النظام الحاكم وقوة الاقتصاد والجيش وهي أمور كانت تفتقدها بيزنطة في هذه الحقبة .

الأسباب التاريخية وأطوار الصراع البيزنطي الفارسي

مثلت الدولتان: الفارسية، والرومانية وفيما بعد وريثتها البيزنطية، القوتين العظميين في العصور القديمة وقروناً أخرى من العصور الوسطى.

وقد ظهر الصراع مبكراً بين المعسكرين المتنافسين، وكانت الحروب بينهما طوال القرون سجلاً محتتماً، وبالرغم من تعدد معاهدات السلام التي كانت

(١) ابن خلدون، كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر - بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٧م، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٢) طه باقر، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٣) آرثر كريستنس، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

تفرزها نتائج الحروب، إلا أن هذه المعاهدات لم تكن تصمد طويلاً، إذ أن حقبة الصراع قد تجاوزت بمراحل عدة تلك المدد التي كان يسود فيها السلام بين المعسكرين وتحترم فيها معاهدات السلام وتتوقف الحروب.

ولابد أن هناك عوامل كثيرة قد أوجدت هذا الصراع وأججته على مدى هذه القرون الطويلة، وساعدت على بقاءه وبروزه في أوقات وتراجعه في أوقات أخرى، ولعل منها :

١ - أن منطق القوة لا يبرز إلا بمواجهة قوة أخرى، ونظرية القوة العظمى :

لا تختبر إلا بمحاذاة قوة أخرى، وقد تمتعت الإمبراطورية الرومانية القديمة باتساع جغرافي كبير، امتد - في حقبة من حقبة التاريخ - من الجزر البريطانية غرباً إلى حدود نهر الفرات شرقاً وشمال أفريقيا ومصر وتخوم جزيرة العرب الشمالية مروراً ببلاد الشام جنوباً إلى الأطراف الشمالية للقارة الأوربية شمالاً، أو كما يحددها أحد المؤرخين بأنها تمتد من اسكتلندا حتى السودان ومن شواطئ المحيط الأطلنطي عند البرتغال حتى جبال القوقاز^(١). فإمبراطورية بهذا الاتساع الهائل من الطبيعي اعتبارها قوة عظمى لها مجال تحركها الواسع، وسيطرتها، وطموحاتها، وأطماعها، وأنصارها، وأعداؤها.

على الجانب الآخر كان الفرس بدولتهم وحضارتهم واتساعهم في أطراف عدة من قارة آسيا، حيث امتدت دولتهم من الفرات حتى الهند ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندي^(٢). ويمثلون الطرف الثاني من القوتين العظميين. وقد تمتعت فارس طوال حكمها بنوع من الاستقرار الحكومي والثراء المالي والبروز الحضاري والجيش

(١) دونالد دولي . حضارة روما : ترجمة جميل يواقيم الذهبي، وفاروق فريد - القاهرة: دار

نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩م، ص ٤.

(٢) أسد رستم . الروم - ط ٢ - بيروت : المكتبة البوليسية، ١٩٨٨م، ج ١، ص ٤٤.

القوي^(١)؛ وهي مقومات أساسية لقيام دولة قوية، لها أطماعها ومصالحها ومجال تحركها الحيوي واتساعها الجغرافي، الذي يستدعي الحماية الدائمة وتوفير وسائلها بشكل مستمر.

لذلك فمن الطبيعي أن يكون صدام القوتين العظميين حاداً وعنيفاً وواسع المدى؛ لأن هناك حدوداً مشتركة، ومصالح متشابكة، بل ومتضاربة أحياناً، ومشروعات توسعية لدى كل طرف على حساب الآخر.

٢ - الصراع على مناطق النفوذ والمناطق الحدودية:

كانت منطقة الفرات هي المنطقة الحدودية المشتركة بين الدولتين، ولذلك شهدت احتكاكاً دائماً منذ حقبة مبكرة، وكانت كل دولة تستغل ظروف الدولة الأخرى لإحداث تغييرات في هذه الحدود. وكانت معظم هذه المناطق الحدودية غير مستقرة، فمرة تكون تحت سيطرة الفرس، ومرة أخرى تعود إلى سيطرة البيزنطيين، بل إن الصراع حول هذه المناطق الحدودية كان أحد الأسباب المباشرة التي دعت الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) - الذي يعده بعض المؤرخين أول أباطرة الإمبراطورية البيزنطية - الذي نقل عاصمة الدولة من روما إلى نيقوميديا في الشرق، حتى يكون قريباً من مواقع الأخطار الفارسية، ويستطيع التصدي لهجماتهم المتكررة على الطرف الشرقي للإمبراطورية^(٢).

(١) آرثر كريستنس، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٢) الباز العريني . الدولة البيزنطية، ص ٢٣، وهناك أسباب أخرى دعت إلى هذا الانتقال منها: وفرة السكان والموارد في الشرق عما كان عليه الوضع في الغرب في أعقاب أزمة القرن الثالث الميلادي التي أحاطت بالإمبراطورية الرومانية، كما أن روما لم تعد تصلح للحكم لوجود سلطة السناتو وبقايا عهد الجمهورية، كما أن النصرانية التي اعترفت بها الدولة في عهد قسطنطين الأول لم تجد مناخاً طيباً في روما في تلك الحقبة حيث كانت مركزاً من مراكز الوثنية إلى غير ذلك من الأسباب.

كما أن التحركات الدبلوماسية والدينية من الطرفين في المناطق الحدودية كانت واسعة ومنتشرة ؛ إذ سعى كل طرف إلى كسب ولاء شعوب وقيادات هذه المناطق، كما حدث في أرمينيا عندما بدأت الديانة النصرانية تزحف إليها مما أثار غضب الفرس وتدخلهم، حيث أن أرمينيا كانت من مناطق نفوذهم، ومعنى اعتناقها لديانة جديدة خروجها عن سلطة الفرس^(١).

بل كثيراً ما أثار الصراع حول مدن أو مناطق صغيرة حرباً عنيفة بين الدولتين، مثلما حدث في عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) حينما ثار الخلاف مجدداً حول منطقة لازيقا الحدودية التي لم تكن المعاهدات السابقة قد حددت الموقف منها بشكل دقيق، مما أشعل الحرب بين هاتين القوتين^(٢).

كذلك فإنه في هذا الإطار امتد صراع السيطرة بين الفرس والبيزنطيين للسيادة على العرب القاطنين في المناطق الحدودية بين الدولتين. فكان الفرس يدعمون عرب الحيرة، بينما كان البيزنطيون يدعمون عرب الضجاعة ومن بعدهم الفساسنة^(٣)، ليقفوا مناوئين للفرس وحلفائهم، كما خاض الطرفان حرباً دبلوماسية

(١) طه باقر. تاريخ إيران القديم، ص ١٣٠.

(٢) محمد فتحي الشاعر . السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م، ص ١٦٩. ولأزيقا هي إحدى مناطق بلاد القوقاز والتي تمتد من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأسود غرباً، نفس المرجع ص ١٨٨.

(٣) ينتسب الضجاعة إلى سليح بن حلوان بن ضجعم وهم الذين دحرهم الفساسنة وفرضوا سياستهم عليهم، انظر: ابن خلدون، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٨، أما الفساسنة فهم فرع من أزد اليمن، نزحوا إلى بلاد الشام تحت قيادة عمر بن عامر، وعرفوا في التاريخ بـ"آل غسان" وبـ"آل جفنة" وبـ"الفساسنة"، المسعودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر - بيروت ، ١٩٦٥م ، ج ٢، ص ٨٣.

لكسب ولاء أبرهة حاكم اليمن، كلَّ يريد انضمامه إلى جانبه في صراع القوتين العظميين الفرس والروم^(١).

٣ - الصراع حول طرق التجارة الدولية:

كانت طرق التجارة الدولية أحد أهم أسباب الصراع بين القوتين، وذلك لأن التحكم في التجارة الدولية وفي طرقها أحد أهم مظاهر القوة والثراء للدولتين^(٢). وكانت الكتلة الأساسية للتجارة العالمية في العصور الوسطى تسير من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط. وقد ازدهرت التجارة الشرقية ازدهاراً عظيماً في القرون الأولى للحقبة المسيحية، فظلت أوروبا تستورد الأفاويه والأعشاب وخشب الصندل من الأقاليم الهندية، وتستورد من بلاد الصين الحرير، حيث كانت السلطات تجتهد في البحث عن أرخص طريق يستطيع ذلك الحرير أن يسلكه^(٣).

كما كانت تجارة الشرق تخترق طرقاً مختلفة: منها ذلك الطريق عبر تركستان

(١) محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) HALDON, op.cit. P.46.

(٣) ستيفن رانسيمان . الحضارة البيزنطية؛ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م، ص ١٩٤. والجدير بالذكر أن صناعة وتجارة الحرير حظيت بأهمية كبيرة في الإمبراطورية البيزنطية، فكان لها طوائف عديدة فكان لمن يغزلون وينسجون الحرير طائفة ولمن يتاجرون في الحرير الخام طائفة، ولمن يعملون في صناعته طائفة، وكانت لها مكوس خاصة. وانتشرت مصانع الحرير في الدولة البيزنطية، وشكلت المنتجات الحريرية القسم الأكبر من الصادرات البيزنطية، وكانت صناعة الحرير احتكاراً حكومياً يدر على الدولة ربحاً طائلاً، ولذلك شكل تأمين طرق استيراد الحرير من الشرق اهتماماً خاصاً لدى الحكومة البيزنطية، ومرتكزاً للصراع بين البيزنطيين والفرس. لمزيد من التفصيل عن هذه التجارة انظر: هايد . تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ؛ ترجمة أحمد رضا - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م .

إلى بحر قزوين، ثم عن طريق الشمال إلى نهر الفولجا فالبحر الأسود عند خرسون، أو عن طريق الجنوب عبر شمال إيران إلى نصيبين على الحدود الرومانية، أو عن طريق أرمينية إلى طرابزون، وقد تجتاز الهند وأفغانستان ووسط فارس إلى نصيبين أو إلى مصر، وربما انتقلت بحراً عن طريق الخليج العربي ثم إلى سوريا، أو عن طريق البحر الأحمر إلى مصر، ولم يكن هناك إلا طريقان يتجنبان المرور بأرض فارس أولهما الشمالي الأقصى الذي يعتمد على قيام بادرة من الاستقرار بين أمم منطقة السهوب، أو الجنوبي الأقصى وهو الطريق البحري الذي كان بحاجة دائمة إلى أسطول تجاري في شرق السويس^(١).

وكانت فارس منطقة تهديد لتجارة الدولة الرومانية، ومن بعدها الدولة البيزنطية، فأحياناً كانت تفرض عليها رسوماً جمركية عالية، وأحياناً كانت تقطعها قطعاً تاماً في أوقات الحروب، وكانت الدبلوماسية البيزنطية طوال القرنين الخامس والسادس تبذل قصارى جهدها لضمان استمرار الطريقين البعيدين عن فارس، وذلك إما بالتفاوض مع الممالك الهندية والتركية الضاربة في السهوب، أو مع مملكة أكسوم الحبشية التي كانت تتحكم في تجارة البحر الأحمر^(٢).

فالتنافس الشديد على التجارة الدولية وعلى طرقها كان من الأسباب المهمة للصراع بين الدولتين العظميين - وقتذاك - البيزنطية والفارسية. فمحاولة الاستحواذ على هذه التجارة وتسهيل طرق تدفقها ودوام رواجها، وعقد الصفقات والاتفاقيات لاستمرارها كان مجالاً رحباً للصراع بين الدولتين، وميداناً واسعاً لاحتكاكهما.

(١) ف.هايد، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥.

(٢) رانسيمن، مرجع سابق، ص ١٩٦.

٤ - الاختلاف الديني والثقافي:

دينياً، كان الرومان أصحاب ديانات وثنية متعددة : منها ما عرف بعبادة الإمبراطور، حيث كانوا يعتقدون - والعياذ بالله - أن أباطرتهم من نسل الآلهة، كما أنهم دانوا بالولاء لآلهة وثنية تصوروها عن طرق التماثيل والأنصبة التي حفلت بها المعابد المختلفة سواء في أثينا أو روما^(١).

فلما ظهرت النصرانية حاربها الأباطرة الرومان، إلى أن كان الاعتراف بها رسمياً في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول، الذي أصدر ماسمي بـ "مرسوم ميلان" وذلك سنة (٣١٣م) حين وجد نفسه - وهو يخوض حرباً مع المنافسين له - أنه قد يكون من الأفضل له اجتذاب النصارى، الذين كانوا يتكاثرون في الإمبراطورية، إلى صفه. وتضمن مرسوم ميلان الاعتراف بالنصرانية كأحدى ديانات الإمبراطورية، وأعطى لرعاياها الحق في العبادة والظهور بعد أن كانوا مطاردين وتحت طائلة العقاب^(٢).

ونتيجة لذلك بدأت النصرانية تنتشر في أرجاء الإمبراطورية، حتى صارت هي ديانة الدولة، وبعد قرابة قرنين تقلصت الوثنية، وأصبحت محل محاربة من قبل الدولة^(٣).

(١) بارو. الرومان: ترجمة عبدالرزاق يسري - القاهرة : دار نهضة مصر، ١٩٦٨م، ص ١٤٩.

(٢) هناك روايات عدة عن أسباب إصدار قسطنطين لهذا المرسوم، ومنها أنه رأى رؤيا في المنام تتلخص في أنه كان يقود جيشه وفجأة ظهر برق في السماء، وظهر صليب وعبارة "بهذا تنتصر"، فأصبح من يومه وقد أصدر المرسوم، ولكن بعيداً عن الأساطير والرؤى، فإن قسطنطين، وهو السياسي الماهر، ورجل الدولة الذكي قد وجد في إعلان ذلك جذباً لعدد من الحلفاء إلى صفه، خاصة إذا علمنا أنه لم ينتصر أو يعمد كما هي التقاليد النصرانية إلا وهو على فراش الموت بعد عدة سنوات من إعلانه مرسوم ميلان. لمزيد من التفاصيل انظر، الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٣٥.

(٣) أسد رستم، الروم، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٣.

وفي الجانب الآخر كان الفرس معروفون بأنهم عبدة النار، ولهم معابدهم وأفكارهم وطقوسهم الخاصة، كما كانت تنتشر بينهم ديانة أخرى وهي الزرادشتية^(١).

ثم جاءت المزدكية وكانت في بدايتها حركة اجتماعية تستند إلى فكر ديني معدل عن المانوية والزرادشتية ونالت حظوة لدى ملك فارس، وكان مؤسسها "مزدك" ينهى الناس عن التنازع والخصومة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركاء فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ^(٢)، وقد لاقت هذه الأفكار رواجاً بين الطبقات الفقيرة والمسحوقة، كما قوبلت بحرب من الطبقة الأرستقراطية.

وكما نلاحظ فإن الطرفين المتصارعين - الفرس والروم - كانا يدينان بديانتين مختلفتين ومتعارضتين، ولكل منهما ثقافتها وأدبياتها، كما كانت المناطق الحدودية بين الدولتين مجالاً رحباً لاختبار هذا الصراع في مراحلها المختلفة، فكثيراً ما شن الفرس حرباً لا هوادة فيها على هذه المناطق التي كان سكانها أسبق إلى النصرانية وضيقوا عليهم الخناق ومنعواهم من تعمير الكنائس، ولكن هذا الموقف كان يتأثر بالوضع على جبهة القتال. فعندما يكون الفرس بحاجة إلى السلام والمهادنة مع البيزنطيين - كما حدث في عهد يزدجرد الأول - يعمدون إلى تخفيف حدة الصراع، ويسمحون للنصارى بحرية العمل والتبشير وإقامة شعائهم وإعادة

(١) الزرادشتية ديانة قديمة تعود إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، وأصحابها كانوا يعتبرونها ديناً محافظاً يتحرك في حدود فارس فقط، وينظرون بريية وازدراء إلى أصحاب الديانات الأخرى من اليهودية والنصرانية والمانوية، طه باقر. تاريخ إيران القديم، مرجع سابق، ص ١٣٢.

المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٨.

بناء كنائسهم الخربة، وذلك لتهدئة الجبهة مع البيزنطيين حتى يتفرغوا للشؤون الداخلية التي كانت تعاني من بعض الاضطرابات^(١).

وكان من طبيعة الأمور أن يقوم صراع تغذية المعتقدات الدينية خاصة وأن كلا الدولتين كانت لا تتورع عن حرق وتخریب الكنائس والمعابد وبيوت النار في أعقاب الانتصار في المعارك ثم تقوم في عقب ذلك الثارات المتكررة^(٢).

وهناك عامل ديني آخر وهو العنصر اليهودي، حيث لم يتورع اليهود عن إضرام نار العداوة بين الطرفين، وفي سبيل ذلك قدموا المساعدة والمشورة إلى كل من الطرفين المتحاربين؛ لأن أي إضرار يقع في الجانبين سيكون في صالحهم^(٣).

٥ - ويبقى عامل أخير:

فإن الدولتين بالرغم من كونهما، القوتين العظميين للعصور القديمة والوسطى، إلا أن كلا الدولتين كانتا تتعرضان أحياناً لعوامل التراجع، حيث تحيط بالواحدة منهما عوامل الضعف والصراعات والمشكلات الداخلية، بينما الدولة الأخرى تتربص انتظاراً للفرصة المواتية للهجوم والاكتماس وتحقيق الانتصارات العسكرية على جبهة القتال. كما استغلت حقب السلام لكشف عورات الدولة

(١) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٢٨٤.

(٢) حدث ذلك مراراً وبالأذات في أنطاكية والقدس وأجزاء من أرمينيا، كما حدث في أماكن كثيرة من بيوت النار الفارسية في داستاجرد وغيرها من المدن الفارسية وبالأذات المدن الحدودية وعلى حقب متعددة.

(٣) ظهر ذلك واضحاً عندما اقتحم الفرس مدينة القدس للمرة الثانية بمساعدة يهودية سنة (٦١٤م)، وأحرقوا المدينة وقتلوا الآلاف ولم ينج من القتل سوى اليهود الذين قدموا مساعدات مهمة للفرس، وسنعرض لاحقاً لتفاصيل هذه الموقعة المهمة وذات التأثير الكبير في الصراع بين الدولتين.

الأخرى، والاستعداد للجولة القادمة من الصراع الذي كان يحمل عوامل التجدد والاستمرار^(١).

وانطلاقاً من هذه العوامل والمعطيات وغيرها، فقد كان من الطبيعي أن يقوم هذا الصراع الدموي بين الأمتين والدولتين والحضارتين المختلفتين، وأن يمتد طوال هذه القرون الكثيرة، لتكون نهايته بعد واحدة من أخطر جولاته، في عهد الإمبراطور البيزنطي هرقل والملك الفارسي كسرى الثاني أبرويز (المظفر).

ولكن كيف ابتدأ هذا الصراع وكيف اندلعت الشرارة الأولى فيه؟

ترى بعض المصادر أن بداية الصراع تعود إلى سنة (٥٥٠ ق.م) عندما قام قورش ملك فارس (ت ٥٢٩ ق.م) بغزو دولة ليديا في آسيا الصغرى، وكانت عاصمتها سارديس، وملكها يسمى كريسوس. فقد غزا قورش ليديا وأخضعها لحكمه وجعلها جزءاً من الإمبراطورية الفارسية، ولما مات أعقبه ابنه قمبيز الذي حكم سبع سنوات ثم جاء بعده دارا الذي أصبح ملك فارس (٥٢١-٤٨٦ ق.م)^(٢).

وبعد زمن حافل بالحروب والحروب المضادة بين الفرس والمقدونيين واليونانيين والرومان، جاء زمن الإسكندر الأكبر، الذي كان من أهدافه قهر إمبراطورية الفرس، وملكها دارا الثالث (٣٣١ ق.م)، حيث هزمه أولاً في قواعده في الجزء الأوروبي، ثم أكمل انتصاراته بهزيمة دارا في عواصمه الشرقية الثلاث العظيمة: بابل وشوشان وبرسبولس^(٣).

(١) HALDON, op.cit, P.325.

(٢) ثيودور جيانا كوليس . اليونان شعبها وأرضها؛ ترجمة محمد أمين رستم - القاهرة : مكتبة

النهضة المصرية، ١٩٦٦م، ص ١٢٠.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٤.

وهذه الحروب كثيراً ما كان يقودها كل من الإمبراطور الروماني أو البيزنطي والملك الفارسي . وقد حفظ لنا التاريخ أسماء عدد من الأباطرة البيزنطيين وهم يقودون المعارك بأنفسهم بالرغم من أنه كانت هناك اعتراضات على قيادة الأباطرة للجيش بأنفسهم^(١)، وقد فقد عدد من الأباطرة حياتهم أثناء القتال كما حدث للإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣ م Juliane the Apostate)^(٢).

الاجتياح الفارسي لأراضي الإمبراطورية البيزنطية

قبل وخلال عهد الإمبراطور هرقل

اتخذ الملك الفارسي كسرى الثاني (٥٩٠-٦٢٨ م)^(٣) من مقتل الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢ م) صديقه وصهره على يد فوكاس (٦٠٢-٦١٠ م) مبرراً لاستئناف القتال مع البيزنطيين، خاصة وأن أحد أبناء موريس وهو ثيودسيوس نجا من القتل والتجأ إلى كسرى مستجيراً به وطالباً مساعدته، فأجاره ووعدته بالمساعدة. ويقال إن كسرى حزن حزناً شديداً على موريس، وبكا ولبسَ السواد، وأمر كبار رجاله بارتداء السواد كذلك. وشرح لرجاله الدور الكبير الذي قام به الإمبراطور موريس في نصرته ومساعدته ومدته بجيش بيزنطي عندما ثار عليه بهرام شوبين^(٤).

(١) Ostrogorski, op.cit, P. 90.

(٢) سمي بالمرتد لأنه حاول الارتداد عن النصرانية التي اتخذها قسطنطين الأول ديانة للإمبراطورية والعودة مرة ثانية إلى الوثنية، وقام بجهود حثيثة في هذا المجال، ولكن مشروعه فشل؛ لأنه سرعان ما توفي في القتال مع الفرس ولم يكتب له النجاح في تحقيق رغبته بعودة الوثنية للإمبراطورية. Theophanes, op.cit, P.78.

(٣) كسرى الثاني أبرويز ابن هرمز وحفيد كسرى أنوشروان، وعرف بأبرويز؛ لأنه بلغ من النصر والظفر وجمع المال والكنوز مالم يتهيأ لملك، لذلك سمي أبرويز ومعناها بالعربية المظفر.

(٤) سبق وأن استعرضنا تفاصيل هذه المساعدة وأهدافها وما أدت إليه.

ولعل تلك المساعدة التي سبق أن قدمها موريس لكسرى كانت هي السبب في الاستجابة لاستجارة ابن الإمبراطور موريس. وهذا فضلاً عن أن هناك أسباباً أخرى دفعت الملك كسرى لاتخاذ هذا الموقف، من بينها ذلك التاريخ الطويل من العداء المستحكم بين الفرس والبيزنطيين والصراع الأزلي بينهما، والرغبة في استعادة السيطرة على طريق تجارة الحرير الذي كانت مقاليدته في يد البيزنطيين، ثم تسوية الخلاف الذي كان ناشباً حول بعض المناطق الحدودية بين الدولتين^(١).

وتذكر بعض الروايات أن كسرى حاول في البداية اتباع الدبلوماسية مع البيزنطيين على أمل أن يخلعوا فوكاس ويسلموا العرش إلى ثيودوسيوس ابن موريس، ولذلك أرسل رسولاً من لدنه، غير أن البيزنطيين قبضوا على الرسول، وأرسلوه مقيداً بالأغلال إلى بلاده، وعندما علم كسرى بذلك قرر مهاجمة الأراضي البيزنطية^(٢). غير أن هذه الرواية بعيدة عن الواقع إذا أخذنا في الاعتبار ظروف الإمبراطورية في بداية حكم فوكاس، والاضطراب الذي سادها واحتياجه إلى السلام، إلا أن ما عرف عن فوكاس من دموية وعنف قد يدفع إلى تصديقها.

جهز كسرى جيشه واختار لقيادته رجلاً شجاعاً فظاً يدعى رومزان Romizan وأوصاه باتباع العنف مع البيزنطيين وسماه شهرباراز Sahrbaraz^(٣)، وهذا القائد هو الذي سيقود معظم المجهود الحربي الفارسي في المعارك القادمة ابتداء من سنة (٦٠٣م).

(١) Camb, med. Hist, vol.2, p.284.

(٢) ليلي عبد الجواد إسماعيل . الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣) شهرباراز بالفارسية تعني خنزير الملك، وكان الخنزير رمزاً للقوة والرجولة في فارس. انظر:

آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ١٢٧ .

خرج شهر باراز مع ثيودسيوس - ابن موريس - على رأس الجيش الفارسي حتى وصلا إلى قرب مدينة دارا Dara ^(١)، انتظاراً لوصول كسرى الذي قرر أن يشارك في الحملات. والذي وصل بعد أيام، حيث قرر تقسيم جيشه إلى قسمين. فأبقى القسم الأول لحصار دارا، وسار بالقسم الثاني إلى الرها، وقبل وصول كسرى إلى الرها كان القائد البيزنطي نارسيس Narses الذي تولى أمر منطقة ميسوبوتاميا Mesopotamie (بلاد الرافدين)، قد أعلن تمرده على الإمبراطور فوكاس ودخل بجيشه مدينة الرها واستولى عليها، أرسل إليه فوكاس جيشاً بقيادة جيرمان Germain الذي نجح في استعادة الرها وأخرج نارسيس منها وأرسله إلى القسطنطينية ^(٢). ولكن كسرى كان بالمرصاد لهذا الجيش البيزنطي فقد استطاع الاستيلاء على مدينة الرها، ثم عاد إلى دارا التي استسلمت بعد حصار طويل، ثم أخذ في توجيه ضربات قوية للبيزنطيين في أرمينية وشن عليها هجمات متعددة استمرت قرابة خمس سنوات، أسفرت عن وقوع الجزء الأكبر من أرمينية البيزنطية في يد الفرس ^(٣).

تواصلت الهجمات الفارسية على الأراضي البيزنطية، بينما كانت بيزنطة غارقة في مشكلاتها وصراعاتها الداخلية. حيث قام شهر باراز سنة (٦٠٦م) بمهاجمة بلاد مابين النهرين وحاصر آمد (ديار بكر) واكتسح في العام التالي سوريا وفلسطين ^(٤).

(١) دارا : مدينة حصينة بناها الإمبراطور انستاسيوس (٤٩١-٥١٨م) لحماية الحدود البيزنطية من هجمات الفرس، وكانت أيضاً محطة تجارية مهمة، وكانت تسمى مدينة انستاسيوس.

(٢) Osrogorsky, Op.cit, P.92.

(٣) Cam, bmed. Hist, vol.2, p.285.

(٤) Vasiliev, Op.cit, vol.1, P.213.

كما بدأ الفرس يزحفون شمالاً إلى ولايات آسيا الصغرى، واجتاحوا قيصرية، حتى وصلوا سنة (٦٠٨م) إلى خلقيدونية التي تشرف على البوسفور بالقرب من القسطنطينية، حيث أصبح أهلها يشهدون القرى المحترقة على الشاطئ الآسيوي. ولم يستطع الإمبراطور القابع في القسطنطينية أن يفعل شيئاً، وعندما زاد عليه الضغط الشعبي حرك جيشاً، مني بهزيمة منكرة^(١).

على أن التغيرات التي حصلت في بيزنطة لم توقف الهجمات الفارسية على الأراضي البيزنطية. فبالرغم من أن ملك الفرس ادعى أن هجومه هذا كان لمعاقبة قتلة صديقه الإمبراطور البيزنطي موريس، إلا أنه لم يجد في مقتل فوكاس وتولي هرقل الحكم^(٢) سبباً كافياً لإيقاف تقدم جيوشه.

وقد شعر الإمبراطور هرقل بعدم قدرته على مواجهة التحدي الفارسي، خاصة وأنه كان يفتقد إلى الجيش، وخزائنه خاوية، وما زالت أموره السياسية والإدارية تحتاج إلى تنظيم. فرأى اللجوء إلى الوسائل الدبلوماسية، بأن يطلب الصلح. فأرسل رسلاً بهدايا عظيمة وخطابات إلى كسرى، بحثاً عن السلام، ويعلمه أن فوكاس الذي قُتل صديقه موريس قد قُتل، وحاول امتداح ملك الفرس وإطراءه رغبة منه في كسب رضاه واستمالته. ولكن كسرى رفض هذا العرض وهدد بإخضاع الإمبراطورية كلها، بل وذهب إلى أكثر من ذلك حين استولى على الهدايا وقتل الرسل^(٣).

(١) موس، ميلاد العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(٢) تولى هرقل عرش الإمبراطورية البيزنطية في الخامس من أكتوبر عام (٦١٠م)، بعد أن قتل

فوكاس وتم إعلانه إمبراطوراً في كنيسة أيا صوفيا Theophanes, Op.cit, P.429

(٣) Vasiliev, Op.cit, vol.1, P.198.

ركزت خطة الفرس في هذه الحقبة على انتزاع الجناح الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية، مستغلة الظروف السيئة التي تعرفها عن بيزنطة. ومستفيدة كذلك من الظروف الجديدة التي يفرزها مسلسل التراجع البيزنطي. فبادر القائد الفارسي شهرباراز بالتقدم نحو أنطاكية^(١)، التي كانت من أكبر وأجل المدن البيزنطية في أعالي بلاد الشام وأكثرها حصانة، ولكنها سقطت في يده، وقتل بطيركها، وأخذ الفرس عدداً كبيراً من الأسرى، ثم واصلوا تقدمهم حيث استولوا على أقاميه وحمص والتي أسقطوها سنة (٦١١م)^(٢).

وقد أراد كسرى توسيع هجومه على الأراضي البيزنطية تحسباً لوصول الإمبراطور الجديد واستباقاً لأي جهود يمكن أن يقوم بها، لذلك نجده يستدعي قائداً آخر هو شاهين (Sahin) ويأمره بالمسير نحو الغرب بهدف تغطية جيش شهرباراز الذي سار جنوباً نحو فلسطين، وليمنع الهجوم عليه من قليقية، وليفتح جبهة جديدة ضد البيزنطيين، ونجح شاهين في الاستيلاء على قيصرية عاصمة إقليم قبادوقيا المهم^(٣).

وفي نهاية عام (٦١٢م) كان الفرس قد حققوا انتصارات مهمة باستيلائهم على الجزء الأكبر من سوريا مما جعل البيزنطيين يفقدون اتصالهم البري بولاياتهم في فلسطين ومصر وأفريقية.

(١) المعروف أن أنطاكية تكتسب أهمية خاصة لدى النصارى فهي أول مدينة تقام بها كنيسة نصرانية، وكانت تتمتع بحصانة طبيعية وأسوار منيعة ولكنها سقطت هذه المرة بسهولة ؛ لأن هناك موجة من الاضطرابات والشغب شغل المدينة وقاده اليهود في بداية حكم هرقل. انظر أسد رستم . كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى - بيروت : المكتبة البوليسية، ١٩٨٨، ج ١، ص ١٥٤.

(٢) أسد رستم . الروم، ج ١، ص ٢٢٣ .

(٣) Theophanes, Op.cit, P.430.

بدأ الإمبراطور هرقل في التحرك إزاء هذا الوضع الجديد المتدهور في الجانب البيزنطي، فقرر استدعاء القائد فيليبكيوس Philippicus صهر الإمبراطور السابق موريس، والذي كان له سابق خبرة في تولي الجيوش البيزنطية وكان قد ارتدى ثياب الرهبان، وترك خدمة الجيش ليعمل في الكنيسة، واستطاع الإمبراطور هرقل إقناعه بتولي الجيش الذي قرر إرساله لمحاولة استرداد سوريا^(١).

أما الفرس فقد واصلوا التقدم حيث استولى شاهين على مدينة أرزن الروم Theodosiupolis وملطية، والتقت القوات الفارسية في إقليم بسيدي Pisidie الواقع في جنوب آسيا الصغرى. بينما قاد الإمبراطور هرقل وابن عمه نيكتاس وأخوه ثيودور جيشاً آخر خاض معارك دامية أمام أبواب أنطاكية عام (٦١٣م)، إلا أنهم أصيبوا بهزيمة فادحة، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الفرس للاستيلاء على باقي سوريا وفلسطين، حيث نجح شهرباراز في الاستيلاء على دمشق عام (٦١٣م) ودخل فلسطين، واستولى على جميع المدن الساحلية دون مقاومة^(٢).

وتابع شهرباراز مسيره تجاه بيت المقدس، التي كان لها وضعها الخاص عند النصارى، فإضافة إلى قداستها ومكانتها الدينية، فقد تجمعت فيها ثروات ضخمة أثارت دائماً شهية الفرس، ثم إن سقوطها كان ذا معنى إستراتيجي كبير وأثر نفسي وعقدي مدمر على الإمبراطورية البيزنطية^(٣).

ويذكر بعض المؤرخين أن الفرس أرادوا الاستيلاء على المدينة سلماً حتى يتمتعوا بخيراتها، حيث أرسل شهرباراز سنة (٦١٤م) من مقره في قيسارية إلى أهل

(١) أسد رستم، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٢) Cam, bmed. Hist, vol.2, p.289

(٣) Theophanes, Op.cit, P.431

بيت المقدس يدعوهم إلى الاستسلام والتسليم على أن ينعموا بالسلام والرخاء، وخضع أهل المدينة واستسلموا بعد أن قدموا هدايا كثيرة للقائد الفارسي وللأمراء الفرس، وغادر شهرباراز المدينة بعد أن وضع فيها حامية لحراستها^(١).

وبعد عدة شهور وثب أهل المدينة وشبابها على الحامية الفارسية وقتلوه، ثم أغلقوا باب المدينة، وحدث قتال بين النصارى واليهود، أباد فيها النصارى أعداداً من اليهود الذين كانوا يقفون إلى جانب الفرس^(٢).

عاد شهرباراز وشرع في حصار مدينة بيت المقدس، بعد أن فشلت خطة الاستيلاء السلمي عليها، ونصب آلاته ومعداته وأقام المنجنيق، وبدأ الحصار، وخلال فترة الحصار التي استمرت عشرين يوماً ضرب المدينة دون هوادة. وبالرغم من البسالة التي أبداهها أهل المدينة، إلا أن الفرس استطاعوا حفر سراديب أسفل الأسوار، ودعموها بالخشب وأشعلوها بالنيران، فانهارت الأسوار ودخل الفرس المدينة^(٣).

وخلال ثلاثة أيام أباد الفرس عدداً كبيراً من أبناء المدينة، ولم يتورعوا عن قتل كل من يلقوه من أهل المدينة بحقد شديد، ثم أشعلوا فيها النار، وعملوا على تخريب الكنائس، وأشعلوا النار في كنيسة القيامة وسلبوها كنوزها، وقدر عدد القتلى بما يتراوح بين ٥٧ - ٩٠ ألفاً، وقدر عدد الأسرى بـ ٢٥ ألفاً^(٤). كما أسروا بطريرك المدينة "زكريا" وأجبروا عدداً من رجال الدين على الإلقاء بمكان صليب

(١) ليلى عبدالجواد ، مرجع سابق ، ص ٢١٤ نقلاً عن سيبيوس sebeos الذي كتب تاريخ هرقل

Histoire d' Heraclius, P.68

(٢) Vasiliev, Op.cit, vol.1. P.198

(٣) د. محمود سعيد عمران . معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - بيروت : دار النهضة

العربية ، ١٩٨١م ، ص ٧١ .

(٤) أسد رستم، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٤ .

الصلبوت وهو أثنى المقدسات النصرانية^(١)، وجمعوا الأموال والمجوهرات والأسرى وأرسلوها إلى الملك كسرى.

وكان لسقوط مدينة بيت المقدس بهذا الشكل وبهذا العنف الذي رافقه أثره الكبير على الإمبراطورية البيزنطية، بل على النصارى بشكل عام فهذا السقوط أنزل الفرس بالإمبراطورية هزيمة كبيرة ولطمة قاسية، وعم القسطنطينية شعور عميق بالأسى والحزن، كما تسبب ذلك في إضعاف هيبة الإمبراطورية بشكل لم يسبق أن فعلته كل الهزائم السابقة^(٢).

وبالاستيلاء على القدس استكمل الفرس استيلاءهم على سوريا، وبدأوا يتحركون لموقع آخر من أراضي الإمبراطورية البيزنطية ليطبقوا عليها ويعرضوها لمزيد من الهزائم.

كانت نقطتهم التالية هي مصر أهم الأراضي الإمبراطورية من الناحية الاقتصادية والإستراتيجية، حيث انطلقت جيوشهم ابتداء من سنة (٦١٦م) عبر غزة والصحراء حيث استولوا على العريش (رينوقولورا Rhinokulura) ثم على الفرما وممفيس في طريقهم إلى بابليون، ثم ساروا إلى الإسكندرية^(٣).

وبعد حصار طويل استطاعوا الاستيلاء على الإسكندرية عن طريق الخيانة، وكان أن عاملوا أهلها بقسوة وعنف، حيث يذكر سايروس ابن المقفع في تاريخه عن

(١) يعتقد النصارى أن صليب الصلبوت هو الخشبة التي قتل وصلب عليها المسيح وعليها قطرات من دماؤه، وكان محفوظاً داخل صناديق عديدة في جبل الزيتون بالقدس، ويعتبرونه من أثنى ذخائرهم ومقدساتهم الدينية، والحقيقة أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله لقوله تعالى : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ سورة النساء، الآية: ١٥٨.

(٢) الباز العريني، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٣) بتلر، فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٥٣.

بطاركة الإسكندرية، أن الوالي الفارسي أمر كل رجل في مدينة الإسكندرية ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨-٥٠ عاماً أن يخرجوا ليتسلم كل منهم عشرين ديناراً، وعندما اجتمعوا، كتب أسماءهم وهم يظنون أنهم سيأخذون العطية التي وعدهم بها، ولكن عند خروجهم جميعاً أمر جيشه أن يحيط بهم ويقتلهم جميعاً بالسيف، وبلغ عددهم ثمانية آلاف رجل^(١)!!

وأحدث الاستيلاء على مصر أثراً بالغاً في عالم ذلك العصر، فقد عادت مصر إلى السيطرة الفارسية بعد مدة تزيد على التسعة قرون، وكان ملوك الفرس الساسانيون يطمعون دائماً إلى أن يمدوا حدودهم إلى ما كانت عليه فارس أيام إمبراطورية الإخمينيين^(٢)، وقد اعتبروا ذلك انتصاراً وفخراً كبيراً، كما أن خسارة الإمبراطورية البيزنطية كانت كبيرة ، فقد كانت مصر ذات أهمية إستراتيجية في البحر المتوسط، ومخزن غلال الإمبراطورية، وبضائعها توقفت إمدادات القمح المصري، مما كان له أبلغ الأثر في زيادة الأزمة الاقتصادية الطاحنة في بيزنطة^(٣).

وفي الوقت نفسه الذي سقطت فيه مصر في يد الفرس، كان جيش فارسي آخر يتقدم في آسيا الصغرى وينجح في عام (٦١٦م) في الوصول إلى كريسبوليس Chrysoupoiles سكوتارى حالياً) ويقيم معسكره في خلقدونية التي تقع على بحر

(١) سايروس ابن المقفع . تاريخ بطاركة الإسكندرية : سلسلة التراث العربي المسيحي ٥٠ - القاهرة : مطبعة دار العالم العربي، ١٩٨٧م، ص ٢٢١. ويبدو أن ذلك مبالغ كبيرة من رجل دين نصراني، وهي مبالغت تعودت عليها مصادر تاريخ العصور الوسطى، إذ لا يعقل أن يتم قتل مثل هذا العدد من الرجال في مدينة واحدة وبهذه الطريقة.

(٢) طه باقر، مرجع سابق ، ص ٥١.

(٣) محمود سعيد عمران، مرجع سابق، ص ٧١.

مرمرة بالقرب من البسفور في مواجهة العاصمة البيزنطية، والتي أصبحت على مرمى النظر من المعسكر الفارسي^(١).

كان وصول الفرس إلى هذه النقطة المهمة، ونقلهم للصراع إلى مشارف العاصمة البيزنطية، رسالة تحمل كل معاني التهديد للإمبراطورية البيزنطية ولإمبراطورها. وقد عاش شعب بيزنطة أياماً مرعبة وهم يتوقعون الهجوم الفارسي عليهم، خاصة وأن آثار حرائقهم وتدميرهم بدت واضحة على الشاطئ المجاور. لقد أصبحت الإمبراطورية البيزنطية قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، فولاياتها الغنية في الشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى قد استبيحت للفرس، والأفار والصقالبة يهاجمونها من الغرب، والأزمة الداخلية فيها طاحنة، وما زال حكم هرقل في الداخل يعاني من الاضطراب والصراع بالرغم من مرور عدة سنوات على تسلمه العرش.

بدأ الإمبراطور هرقل يشعر بالضيق والملل والرعب، وأخذ يفكر في البحث عن وسائل تنقذه وتتقذ عاصمته، حتى ليقال أنه فكر في مغادرتها إلى شمال أفريقيا حتى يستطيع أن يكون جيشاً يستعين به في استرداد أراضيه وإنقاذ كرامة الإمبراطورية^(٢).

وقبل أن يفعل ذلك فكر في اتخاذ الدبلوماسية وطلب عقد لقاء مع القائد الفارسي شاهين حيث زوده بالهدايا وطلب منه عقد معاهدة سلام مع الفرس^(٣).

(١) Ostrogorsky, Op.Cit, P.86.

(٢) د. عمر كمال توفيق . تاريخ الدولة البيزنطية - الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص ٩١.

(٣) تختلف المصادر في ذكر من الذي طلب عقد اللقاء، فبعضها يذكر أنه هرقل والبعض الآخر يذكر أن شاهين هو الذي طلب عقد لقاء مع الإمبراطور وقدم له فروض الطاعة لتوضيح هذا الخلاف انظر : ليلي عبد الجواد، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

وانتهت المفاوضات بأن يقوم وفد بيزنطي بحمل رسالة إلى الملك كسرى للتفاوض معه حول عقد معاهدة سلام.

أعد البيزنطيون سفارة تكونت من البطريق أوليمبيوس Olympius، ووالي المدينة ليونتئوس Leontius، والقس أناستاسيوس Anastasius، وسنيكلوس Syncellus قِيم كنييسة القديسة صوفيا والمسؤول عنها، وقد حملت السفارة معها خطاباً إلى كسرى من رجال السناتو^(١).

وسرعان ما انقلب شاهين على السفارة البيزنطية، فبعد أن عبرت السفارة الأراضي البيزنطية أصدر أوامره بتقييدهم بالسلاسل وأرسلهم إلى كسرى مقيدين حيث أساء كسرى معاملتهم^(٢).

وكان كسرى ينتظر من شاهين أن يرسل إليه هرقل مقيداً بالسلاسل، بدلاً من تقديم فروض الطاعة والاحترام إليه وإجراء مفاوضات باسم الملك، فوبخه ثم أصدر أوامره إلى جنوده المعسكرين في خلقيدونية لمهاجمة العاصمة البيزنطية، وكانوا قد جهزوا في سنة (٦١٩م) عدداً كبيراً من السفن استعداداً لمهاجمة بيزنطة. وقد دارت معركة بين الطرفين، هزم فيها الفرس وولَّوْا الأدبار، بعد أن تكبدوا آلاف القتلى ودمرت سفنهم^(٣).

(١) اختلف المؤرخون في السبب الذي جعل السناتو (مجلس الشيوخ) وليس الإمبراطور يكتب الرسالة. فيرى البعض أن السبب هو أن السناتو كانت له اليد الطولى على هرقل وعلى الحكم في بيزنطة، وأن هرقل كان مشغولاً مع المعارضين له، ومنهم من يرى أن كسرى لم يكن ليعترف بهرقل، وأنه سبق وأن نفى الاعتراف بشرعية خلفاء موريس، وهناك من يرى أن السناتو قد حمل على عاتقه مهمة إنقاذ العاصمة البيزنطية، كما أن سيطرة السناتو كانت بارزة في بداية حكم هرقل، خاصة وأنهم هم الذين استدعوه وبايعوه على العرش بعد سقوط فوكاس. عن هذا التبريرات انظر: Finlay, History of Greece, Oxford, 1877, vol.1. P.343.

(١) Ostrogorsky, Op.Cit, P.87.

(٢) Camb, med. Hist, vol.2, p.285.

وتعود أسباب هذه الهزيمة إلى أن الفرس لم يكونوا بحارة، أو مدربين على القتال البحري، على أن نتيجة هذه المعركة البحرية فتحت آفاقاً جديدة في الصراع بين الدولتين.

حروب الإمبراطور هرقل لاستعادة الأراضي التي استولى عليها الفرس

على الرغم من نشوة النصر المحدود الذي حققه البيزنطيون على الفرس في أعقاب حملة (٦١٩م) البحرية، إلا أن الإمبراطور هرقل شعر أنه لا يستطيع أن يبقى مكتوف اليدين وهو يشاهد الجموع الفارسية على مد النظر من عاصمته، تهدده من ناحية البحر وجموع الأفار الذين عبروا تراقيا وبدأوا تهديد العاصمة من ناحية البر. فأخذ يفكر في أسلوب عملي يستطيع به رد الأعداء والتعامل معهم بنفس وسائلهم، وفي لحظة يأس فكر الإمبراطور هرقل في ترك عاصمته ونقل مقر حكمه إلى شمال أفريقيا، ليستطيع من هناك إعداد جيش، كالذي جاء به ليخلص بيزنطة من فوكاس عام (٦١٠م)، وصارح الإمبراطور بهذه الفكرة اليائسة بطريك القسطنطينية سرجيوس الأول (Sergius I) (٦١٠ - ٦٢٨م) وأهل الرأي والمشورة في عاصمته، فصدموها لهذه الفكرة، وأخذوا يضغطون عليه وطالبه البطريك بأن يُقسِمَ يميناً في كنيسة القديسة صوفيا بأنه لن يترك عاصمته^(١)، وبدأ البطريك يمارس نفوذه ويحاول إعادة الإمبراطور إلى هدوئه وتخفيف خيبة أمله ويأسه^(٢).

(١) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٢٥.

(٢) Theophanes, Op.Cit, P.436.

وسيرجوس الأول بطريك القسطنطينية أدى دوراً كبيراً في هذه الأحداث، ومن البطارقة المهمين في تاريخ الكنيسة البيزنطية، وجاهد في إحلال السلام في الكنيسة النصرانية التي كانت تعاني من الانشقاق وبالرغم من نجاحه بداية الأمر إلا أنه مالبت أن تعرض للعن من هذه الكنيسة نفسها، لمزيد من التفاصيل عنه انظر: دونالد نيكول. معجم التراجم البيزنطية؛ ترجمة وتعليق د. حسن حبشي - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م، ص ٣٦، ٣٧.

بدأ الإمبراطور والبطيريك يفكران بشكل عملي للخروج من هذا المأزق، وقرر الإمبراطور أنه لا بد من السعي لبناء جيش قادر على رد الأعداء الذين يحيطون بالعاصمة والتعامل مع المعطيات الجديدة على أرض الواقع، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بتوافر الأموال اللازمة. واتخذ البطيريك سرجيوس قراراً كبيراً حين عرض أن تضع كنيسته والكنائس الأخرى ذخائرها وأموالها ومجوهراتها تحت تصرف الإمبراطور وذلك على سبيل القرض حيث تتعهد الحكومة - ممثلة في الإمبراطور- بإعادة قيمة هذا القرض عقب انتهاء الحرب^(١).

وقد دل هذا الموقف على سعة أفق البطيريك، بعمله للوصول إلى حل موفق لإخراج الإمبراطورية من أزمتها، كما دل على أنه صاحب شعور وطني حقيقي، يحسن التصرف في الوقت المناسب. إذ أنه لو سقطت العاصمة بيد الفرس أو الآفار لضاعت هذه الكنوز ولأصبحت نهباً للغزاة، وقد تمثلت هذه الكنوز في تلك الأموال المخصصة لأعمال الخير وفي الشمعدانات وأطباق الكنيسة وآنياتها المصنوعة من الذهب والفضة، وكانت ثروة هائلة، إذ أن الكنائس كانت تفوق في أرصدها وثرواتها ثروات الدول، وما زالت الكنائس حتى اليوم وبالذات الكبيرة منها - بمثابة بنوك ممتلئة بالأموال والكنوز، وابتداءً من عام (٦١٩م) بدأت هذه الكنوز تحول إلى دار سك العملات حيث لم يضع الإمبراطور وقته وبدأ في إعداد عملته الجديدة^(٢).

كذلك فرضت الظروف اتخاذ إجراءات أخرى للحد من النفقات، وكان من أهمها إلغاء توزيع الحصص المجانية من القمح التي كان يتسلمها سكان العاصمة منذ أيام الإمبراطور قسطنطين الأول، كما فرضت ضرائب باهظة على رجال الدين،

(١) Vasiliev, Op.cit, vol.1, P.197.

(٢) Theophanes, Op.Cit, P.437.

وخفضت رواتب الموظفين بنسبة ٥٪، وكل ذلك تلقاه الناس بترحاب ورضا^(١). وبذلك تكون مشكلة المال قد حُلَّت بالنسبة للإمبراطورية.

بعد ذلك ركز الإمبراطور هرقل جهوده لحل المشكلة الأكبر وهي توفير الجيش المقاتل، الذي هدته الحروب الأهلية السابقة، وثبت عدم صلاحيته لاعتماده على جموع المرتزقة، بديلاً لذلك الجيش الذين لا يمكن الركون إلى جانبهم أو الاطمئنان إلى استمرارهم في القتال إذا ما توقف إمدادهم بالمال. كما أن الإمبراطور هرقل، من واقع خبرته ونشأته العسكرية، رأى أن أعداء الفرس يعتمدون على سلاح فرسان المدرب وذو الخبرة وسريع التحرك، وغير المثقل بالمعدات، بينما تعتمد العسكرية البيزنطية على سلاح المشاة الثقيل، ولذلك كان لابد من إجراء تغيير جذري يتناول إستراتيجية العسكرية البيزنطية وطريقة قتالها حتى تستطيع التعامل مع الفرس^(٢).

ولذلك انسحب الإمبراطور ابتداءً من شتاء (٦٢١م) خارج أسوار القسطنطينية، حيث أقام في أحد القصور الملكية على الشاطئ الآسيوي، وتفرغ تماماً لدراسة الخطط العسكرية واحتياجاته وتنظيماته، ووضع كتيباً للإرشادات والخطط الحربية ليسترشد بها ضباطه وجنوده وقادته سماه (معلم العلوم العسكرية)، ثم قضى عدة أشهر في التدريب، ورفع الروح المعنوية للجنود، وإجراء مناورات عسكرية بينهم، وكان إشرافه على كل ذلك بنفسه كاملاً^(٣).

كما قرر الإمبراطور قيادة الجيش بنفسه، غير مصنع إلى المعارضات التي

(١) ليلى عبد الجواد، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٢) سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن التشكيلات العسكرية لكلا الطرفين في مطلع هذا البحث.

(٣) Osrogorsky, Op.cit, P.90.

أبداها مستشاروه والتي كانت تستحسن عدم قيادة الإمبراطور للجيش حفاظاً على سلامة الإمبراطورية^(١).

وقد رأى الإمبراطور هرقل ضرورة التأكيد على احترام معاهدة السلام التي سبق توقيعها مع خاقان الآفار، فأرسل خطاباً إلى الخاقان يذكره بالمعاهدة التي بينهما، وأكثر فيه من مدحه، وأنه يعتبره كوصي وأب لابنه الشاب كما جرت العادة. كما وعده بمبلغ كبير من المال إذا هو التزم بالمعاهدة ولم يستغل الظروف القادمة^(٢). وفي الرابع من إبريل (٦٢٢م) وبعد الاحتفال بعيد الفصح في كنيسة القديسة صوفيا، أقر الإمبراطور ابنه قسطنطين خليفة له وشريكا في الحكم، ولأنه كان قاصراً -لم يتجاوز العاشرة - فقد عهد إلى البطريرك سرجيوس والبطريق بونوس Bonus بتولي شؤون الإمبراطورية، وبعد الصلاة والابتهاال، ودّع الإمبراطور عائلته والبطريرك وأصدقاءه ثم ركب سفينته وانطلق في حملته التاريخية^(٣).

عبرت سفن الإمبراطور البوسفور إلى خلقيدونية، ومنها أخذ الطريق الإمبراطوري والذي يؤدي إلى قيصرية حيث اتخذها نقطة تجمع، واتخذ حصنها مقراً أساساً للإمدادات خلال مدة الحرب، وقضى هناك الصيف كله وهو يجمع الجيوش ويدربها ويحفزها للقتال^(٤).

(١) المعروف أنه منذ عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٤٩١-٥١٨م) لم يكن هناك إمبراطور يتولى قيادة الجيوش بنفسه، خاصة وأن بعض الأباطرة قتلوا خلال هذه الحروب أمثال جوليان المرتد وفالنس وغيرهم. وكان الاستثناء الوحيد قبل هرقل هو قيادة الإمبراطور موريس لأحد الجيوش ضد الفرس قبل أن يعقد السلام معهم.

(٢) Camb, med. Hist, vol.II, p.291.

(٣) أسد رستم . الروم ، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٥.

(٤) Haldon, Op.cit, P.212.

وقد شعر الفرس بالاستعدادات البيزنطية، وقاموا بحركة مضادة، إذ أحكموا قبضتهم على النصارى في مملكتهم، وفرضوا عليهم ضرائب جديدة، كما قاموا باحتلال وتأكيد سيطرتهم على الطرق التي يتوقعون قدوم الجيش البيزنطي منها^(١). رأى الإمبراطور هرقل أن من الأفضل - بدلاً من أن يضيع وقته وجهده ومجهود جيشه في استعادة الأراضي القريبة في مصر وسوريا وفلسطين - أن ينقل مسرح المعركة إلى أراضي الفرس، فيقاتلهم في عقر دارهم، لذلك نجده يترك قيصرية في خريف سنة (٦٢٢م)، ويشق طريقه نحو أرمينية، في محاولة منه لإرغام الفرس على ترك آسيا الصغرى والتخلي عن مراكزهم فيها. وما أن دخل أرمينية حتى اصطدمت طليعة جيشه بفرقة من الفرسان الفرس، فتصدى لهم البيزنطيون وقبضوا على قائدهم وأتوا به مكبلاً أمام الإمبراطور، الذي فك قيوده ووعدته بالحرية إذا انحاز إليه^(٢).

وعند حلول الشتاء تقابل الجيش الفارسي مع جيش الإمبراطور وجهاً لوجه، ولكنه لم يعبأ بهذا الجيش واستمر في زحفه إلى الشرق حيث عرج إلى منطقة بونطس Pontus وتظاهر أنه سوف يقضي الشتاء هناك، فانخدع الفرس بذلك وبدأوا في الانسحاب، ليواصل هو طريقه نحو فارس. وقد شعر القائد الفارسي شهرباراز بخطة الإمبراطور فعاد وبدأت المناوشات بين الطرفين، والتي سرعان ما تطورت إلى حرب عنيفة حيث لقي الفرس هزيمة نكراء وتكبدوا خسائر فادحة، واحتل البيزنطيون المعسكر الفارسي^(٣).

(١) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٤٣١.

(٢) Camb, med. Hist, vol.II, p.295.

(٣) Osrogorsky, Op.cit, P.92.

هكذا حقق البيزنطيون أول انتصار على الفرس، وكان من أهم فوائده كسر حاجز الخوف والرغبة الذي كان يحمله الجنود البيزنطيون للفرس، واستعادة آسيا الصغرى وإجلاء الفرس منها دون حرب كبيرة وإنما بخدعة عسكرية ماهرة، حيث أجبروا الفرس على أن يقاتلوا في الموقع الذي اختاروه وفي الزمن الذي حددوه^(١). ترك الإمبراطور هرقل جيشه في أرمينيا، بعد أن وصلته أخبار نقض الآفار للمعاهدة المعقودة معهم، ومهاجمتهم للعاصمة البيزنطية. ويبدو أن الفرس أعادوا الاتصال بالآفار لتأليبهم على الإمبراطورية. وعندما سمع كسرى بأنباء هزيمة جيشه انتابته حالة من القلق، ولكنه سرعان ما شعر بالارتياح عندما علم برحيل الإمبراطور، وبدأ يرسل الإمدادات إلى شهرباراز لتقوية جيشه وأمره بغزو الأراضي البيزنطية، ولكنه لم يستطع تنفيذ هذه الأوامر إلا في عام (٦٢٣م) بعد أن استغرق منه إعداد الجيش وقتاً طويلاً^(٢).

استطاع الإمبراطور تسوية الأمور مع الآفار، ورحل مجدداً إلى أرمينية سنة (٦٢٤م)، حيث التحق بجيشه الذي بلغ قمة الاستعداد، ووصل عدده إلى ١٢٠,٠٠٠ مقاتل، وتوغل بهذا الجيش إلى أرمينية الفارسية، حيث وصل إلى عاصمتها دوفين Dovin، واستولى عليها بالقوة ثم سلبها وأحرقها، واستمر في تقدمه واستولى على مدينة نشقفان Naxcawn بالقوة وضربها، وأصبح في عمق من الأراضي الفارسية حيث جمع قواته وأخذ يبيت فيهم روح الحماس بخطبة ألقاها عليهم^(٣).

(١) Theophanes, Op.cit, P.444.

(٢) أسد رستم . الروم، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٦.

(٣) Vasiliev, Op.cit, vol.1P.247. ونشقمان مدينة أرمينية قديمة تقع في شمال نهر الرس على حدود إقليم أراغات في أرمينيا .

أذهلت الانتصارات البيزنطية كسرى، فقام على عجل بجمع ٤٠ ألف من رجاله، وسار بهم إلى مدينة كانزاك Canxak عاصمة إقليم أذربيجان . وعندما علم الإمبراطور بأمر هذا الجيش سار على عجل إلى كانزاك حيث دارت المعركة التي هُزِمَ فيها الفرس، واستسلمت المدينة وهرب كسرى بعد أن تكبد جيشه خسائر فادحة^(١). علم الإمبراطور هرقل أن كسرى هرب إلى مدينة تبريز (Thebarmes) التي تقع في الجزء الجنوبي من أذربيجان، وأنه أحرق جميع الأعشاب والمحاصيل في طريقه حتى يعاني الجيش البيزنطي من نقص المؤن، وكان هذا هو التكتيك الفارسي المعتاد . ولكن هرقل استمر في مطاردته من مكان إلى آخر في هذه المناطق الوعرة^(٢). وصل كسرى في هروبه إلى إقليم ما بين النهرين وبدأ في حشد جيش جديد بقيادة شاهين، وعاد شهر باراز بجيشه إلى نينوى (Niniveh) على الشاطئ الشمالي لنهر دجلة، بينما قرر الإمبراطور أن يقضي الشتاء في ألبانيا (Albania) التي تقع في إقليم جورجيا، وهناك أطلق خمسين ألفاً من الأسرى الفرس الذين كانوا في حالة يرثى لها حتى يخفف العبء على جيشه، وبدأ في مراسلة حكام الأقاليم المجاورة في بلاد الأبخاز ليمدوه بالمؤن ويشاركوا في مجهوده الحربي^(٣). أراد كسرى أن يعوض خسائره السابقة ويوقف تقدم الإمبراطور هرقل، فلم ينتظر انتهاء فصل الشتاء بل سارع إلى تكوين ثلاثة جيوش الأول بقيادة شهر باراز، والثاني بقيادة شاهين، والثالث بقيادة شاربلانجا Sarablanga (أي النمر الملكي). وبالرغم من إحاطة هذه الجيوش الثلاثة بهرقل، وما تعرض له من خيانة حيث

(١) Camb, med. Hist, vol.II, p.294.

(٢) Theophanes, Op.cit, P.446.

(٣) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٤٣١.

انسحب حلفاؤه من لازيقا والليريا. إلا أنه استطاع التصدي لها وتحقيق الانتصار عليها، بعد أن أعاد توزيع جيشه وبث روح الحماس فيه، ثم استطاع أن يستولى على مدينة Ali، ثم جمع جيوشه وقضى الشتاء في منطقة فان Van، وفي المعسكرات التي كان شهرباراز قد أعدها ليقضي بها فصل الشتاء لعام (٦٢٥م)^(١).

بهذه الانتصارات أصبح هرقل سيداً على أرمينيا الفارسية، وعلى أذربيجان وجزء من فارس، بعد ثلاث سنوات من القتال الضاري والبعد عن عاصمته، والتي عاوده الحنين إليها وشعر بالخوف عليها، بعد أن علم بالمفاوضات التي كانت تجري بين الفرس والآفار، بينما توجه شهرباراز إلى القسطنطينية، لذلك استدعى هرقل مجلساً حربه حيث قرر أن ينسحب بسرعة، واستمر في انسحابه حتى وصل إلى آمد (ديار بكر)، ومن هناك بعث برسالة طمأنة إلى القسطنطينية يقص عليهم ماحدث وماحققه من انتصارات^(٢).

وعند الفرات التقى الإمبراطور بشهرباراز حيث دارت معركة عند أحد الجسور تكبد فيها الفرس خسائر فادحة^(٣).

وجمع الإمبراطور جيشه وتوجه إلى سيواس Sebastea في آسيا الصغرى، أما كسرى فقد غضب لهذه الهزائم وأرسل رجالاً يسلبون جميع الكنائس الواقعة في تخومه، وأجبر النصارى على اعتناق مذهب النساطرة، نكاية في الإمبراطور هرقل، كما فرض عليهم ضرائب جديدة لدفعها إلى حلفائه الآفار^(٤).

(١) Camb, med, Hist, vol.II, p.294.

(٢) أسد رستم، الروم، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٧.

(٣) ليلي عبد الجواد، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٤) Osrogosky, Op.cit, P.94.

لم يستسلم كسرى لهذه الهزيمة الثقيلة، وإنما أصدر أمره بالتعبئة العامة وكون جيشاً، من الأجانب، والغرباء، والمواطنين، والخدم، والعبيد، ومن كل الأجناس والطبقات، إضافة إلى القوات النظامية، وسَمَّى هذا الجيش "كتائب الذهب" وأسند قيادته إلى شاهين، أما شهرباراز فقد توجه إلى القسطنطينية لينسق مع الآفار. وفي الجانب البيزنطي، قام هرقل بتقسيم الجيش إلى ثلاثة أقسام: أرسل أحدها إلى القسطنطينية لحمايتها من الهجوم الفارسي الآفاري، والثاني لمهاجمة شاهين بقيادة شقيقه ثيودور، وتولى هو قيادة القسم الثالث حيث توجه إلى منطقة لازيقا، حيث عقد تحالفاً مع الخزر والشعوب النصرانية في منطقة القوقاز للتعاون معه في شن هجوم ضد فارس^(١). وقد عزم الإمبراطور على السير مباشرة إلى المدائن (طيسفون) Ctesiphon، وذلك سنة (٦٢٧م) حيث غادر مدينة تفليس Tiflis عاصمة جورجيا ومعه حلفاؤه من الخزر، وفي أول ديسمبر من السنة نفسها (٦٢٧م) وصل بجيوشه إلى مدينة نينوى حيث عسكر بجوارها، ثم استطاع الاستيلاء عليها بعد معركة طاحنة مع الفرس^(٢). وعندما علم الإمبراطور أن كسرى يعسكر بجيشه في داستاجرد Dastagerd المقر الصيفي لكسرى) سارع بمهاجمتها حيث استولى عليها في ٤ يناير (٦٢٨م)، واضطر كسرى إلى الهرب من داستاجرد إلى المدائن^(٣).

وفي داستاجرد وجد الإمبراطور ثروات هائلة، اضطر البيزنطيون أمام كثرتها، إلى إحراق الكثير منها، كما اضطرروا إلى حرق معسكر كسرى وعدد آخر من القصور الملكية. وكان الهدف من ذلك هو إدخال الرعب في قلب كسرى وجنوده،

(١) الباز العريني، مرجع سابق، ص ١٢٧. وأيضاً: Haldon, Op.cit, P.231.

(٢) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٤٣١.

(٣) Theophanes, Op.cit, P.458.

والانتقام من حرق الفرس للمدن البيزنطية. وكان من الأسلاب التي عثر عليها في داستاجرد أكثر من ثلاثمائة راية بيزنطية وقعت في يد الفرس في المعارك السابقة. ونفائس لاتعد من الفضة الخالصة والموائد الخاصة بالعبادات، وبُسُط مطرزة وأقمشة من الحرير والديباج والسكر والزنجبيل والفلفل، وكمية عظيمة من خشب العود وغير ذلك من المواد العطرية، وفي الحرم الواسع الملحق بالقصر كانت النعام والغزلان وحُمُر الوحش والطواويس والديكة البرية والسباع والنمور^(١).

كان كسرى قد هرب من داستاجرد قبل قدوم البيزنطيين، وهرب هو وزوجاته المفضلات وأولاده - دون أن يشعر به جيشه أو وجوه شعبه أو أشرافه - إلى (المدائن) طيسفون. ولكنه لم يشأ المقام بها^(٢)، فعبر نهر دجلة وأقام في مدينة سلوقية (Seleucia)، حيث وضع فيها أمواله وزوجته شيرين وثلاثاً من بناته، أما زوجاته الأخريات وأبنائهن الكثيرون فقد أرسلهم إلى مكان حصين على بعد أربعين ميلاً من سلوقية^(٣).

ولكن على الرغم من انتصارات هرقل، فإنه عرض الصلح مع كسرى على أساس العودة إلى حدود عام (٦٠٢م)، وإطلاق سراح الأسرى، إلا أن كسرى رفض هذا العرض المشرف له. وقد برر بعض المؤرخين سبب إقدام هرقل على هذا العرض - بالرغم من انتصاراته - إلى أن الإمبراطور الذي قضى خمس سنوات في حروب مستمرة مع الفرس عبّر آسيا الصغرى وإقليم القوقاز والأراضي الفارسية، كانت

(١) آرثر كريستنس، مرجع سابق، ص ٤٥١.

(٢) تذكر الروايات أن سبب كره كسرى المقام بالمدائن أن أحد العرافين سبق أن تنبأ له قبل أربع وعشرين سنة أنه إذا عاد إلى المدائن فسوف يموت، انظر: ليلى عبدالجواد، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

(٣) Theophanes, Op.cit, P.449.

حياته في خطر دائم وجرح فيها عدة مرات، كما أن تكاليف الحرب كانت باهظة، مما دعاه إلى طلب الصلح. ولكن كسرى لم يكن مستعداً للتسليم بهذه النهاية. لذلك رفض وقف الحرب، مما كان سبباً في احتقار أتباعه له ونقمة شعبه وجيشه عليه^(١).

غادر الإمبراطور هرقل داستاجرد في السابع من يناير (٦٢٨م)، ثم عسكر على بعد اثني عشر ميلاً من قناة النهر Nahr-Wan حيث تجمع بقايا جيش الفرس، وهو على بعد عدة أميال من عاصمة الفرس (المدائن) التي يشطرها نهر دجلة إلى قسمين.

انعقد مجلس الحرب البيزنطي، حيث قرر الهجوم على المدائن، إلا أن هناك عدة أسباب حالت دون إقدامه على ذلك منها:

١ - أن الفرس قطعوا الجسور، ولا توجد مخاضة أو مكان يمكن منه عبور قناة النهر إلى المدائن.

٢ - الخطر الذي يشكله جيش شهرياراز الموجود في خلقدونية، والذي استدعاه كسرى لمساعدته.

٣ - يبدو أن البيزنطيين كانوا يراقبون عن كثب، التطورات السياسية في فارس، فأروا أن انتصارهم يمكن في تتابع وتغذية الانقسامات والنزاعات داخل دولة الفرس، وهذا أكثر فائدة من المخاطرة بالهجوم على عاصمتها الآهلة بالسكان^(٢).

وقد صح ماتوقعه البيزنطيون، ذلك أنه في ربيع عام (٦٢٨م)، وقع ما جعل المضي في الحرب والقتال أمراً لا داعي له، حيث اندلعت الثورة ضد كسرى، وانتهت بعزله^(٣). وكانت هناك أسباب كثيرة دعت إلى قيام الثورة ضد كسرى من أهمها

(١) Finlay, Op.Cit, IP.345.

(٢) Theophanes, Op.cit, P.460.

(٣) Osrogorsky, Op.cit, P.96.

استمرار الحرب بين الطرفين لفترة طويلة، وما ترتب على ذلك من ضياع خيرة قواد فارس، وما وصل إليه اقتصادها من حالة سيئة، ولجوء كسرى إلى فرض ضرائب باهظة لتغطية نفقات الحرب، وانقلاب النصارى عليه ووقوفهم إلى جانب البيزنطيين، ثم إن هروب كسرى من داستاجرد ورفضه السلام وإصراره على مواصلة الحرب، ومعاملته السيئة للضباط الذين فروا أثناء الحرب، كلها أسباب تجمعت وأدت إلى الثورة^(١).

قاد الثورة ضد كسرى أكبر أبنائه (شبيرويه) من ماريا ابنة الإمبراطور البيزنطي موريس التي زوجها لكسرى أثناء مرحلة السلام بينهما. حيث علم شبيرويه أن أباه قد عزم على تجاوزه وتنصيب مردانشاه ابنه الأصغر من شيرين^(٢). لذلك قام شبيرويه دفاعاً عن حقوقه في العرش باستدعاء القائد العام للجيش كشنسب أسباد Gushnasp Aspadhp، ووعده أن يحترمه وسائر قواد الجيش، وأن يرفع رواتب الجند، وأن يسعى لعقد معاهدة سلام مع البيزنطيين، إذا ما قام الجيش وأعلنه ملكاً^(٣).

(١) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٤٧٤.

(٢) شيرين كانت معشوقة كسرى ولقبها "روضة الحسن وضرة البدر" وقد اعتبرها كثير من المصادر الشرقية والغربية يونانية الأصل؛ لأنها مسيحية، ولكن الاسم الذي عرفت به فارسي هو (الحولة)، وأصلها من خوزستان، وكانت قد تزوجت كسرى في أوائل حكمه واحتفظت بأثرها فيه، بالرغم من أنها كانت أقل مرتبة من ماريا الأميرة البيزنطية، التي تزوجها كسرى لأسباب سياسية. والمعروف أن كسرى كان له عدة زوجات، وتذكر بعض المصادر أن شيرين قد دست السم لماريا، ولم يعلم أحد بذلك. وبعد سنة من موتها، أعطى كسرى غرفة نومها الذهبية لشيرين. لمعرفة تفاصيل أخرى عن حياة كسرى وبذخه وزوجاته انظر : آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٤٥٨.

(٣) Vasiliev, Op.cit, vol.1, P.263.

وبدأ قائد الجيش الفارسي يتصل بالبيزنطيين لاطلاعهم على التطورات السياسية في المدائن والتمهيد لإقرار السلام. فطلب هرقل - تأكيداً لهذه الرغبة- إطلاق سراح الأسرى البيزنطيين الذين لدى الفرس وتسليمهم، ليساعدوه في مواجهة كسرى، فاستجاب شيرويه وفتح قلعة النسيان - وكانت إحدى السجون التي يودع بها الأسرى - وأخرج منها عدداً كبيراً من الأسرى البيزنطيين^(١).

نفذ شيرويه خطته ودخل المدائن ومعه القادة والضباط والأسرى الذين أطلق سراحهم، وحاول كسرى الهرب ولكنه لم ينجح إذ ألقى عليه القبض وقيّد بالسلاسل وألقي في بيت مظلم، وبعد خمسة أيام قتل كسرى بناءً على أوامر ابنه شيرويه وتوج شيرويه ملكاً على الفرس في ٢٥ فبراير (٦٢٨م) في حضور كبار رجال المملكة. وبعد الخلاص من كسرى انشغل بعقد اتفاقية سلام وصلاح مع البيزنطيين^(٢).

وقد نصت معاهدة الصلح بين الطرفين على إعادة الحدود إلى ما كانت عليه في عام (٥٩١م)، والجلء عن جميع الأراضي التي احتلها الفرس، وإطلاق سراح الأسرى، وعودة صليب الصلبوت الذي أخذه شهرباراز من بيت المقدس^(٣).

بهذا الصلح اختتمت الدولتان حلقة مريرة من حلقات الصراع المبرر بينهما، وانتهت صفحة من صفحات النزاع بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وكان هذا هو الفصل الأخير في الصراع بين الدولتين. إذ أن الفرس ما لبثوا أن خرجوا

(١) آرثر كريستس، مرجع سابق، ص ٤٧٥.

(٢) Camb, med, Hist. vol.II, p.299.

(٣) Osrogorsky, Op.cit, P.129.

من دائرة النفوذ والتأثير في الأحداث: لأن المسلمين بعد أن هزموهم وأنهوا دولتهم من الوجود حلوا مكانهم في الصراع مع البيزنطيين.

لقد أمضى الإمبراطور هرقل ست سنوات من الحروب والصراع مع الفرس لتحقيق هذه النهاية لذلك الصراع الطويل مع الفرس، وهي مدة طويلة حفلت بالحروب والهزائم والانتصارات التي توجهها الإمبراطور هرقل بتحقيق هذا الانتصار الكبير على أبواب العاصمة الفارسية المدائن.

الخاتمة

تناولت الصفحات السابقة جانباً من الصراع الكبير والمرير الذي احتدم لحقبة طويلة من التاريخ بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الفارسية. لقد شكل هذا الصراع الذي قام بين القوتين العظميين في تلك العصور واحدة من أهم القضايا التاريخية والسياسية والدينية والاقتصادية في تلك الحقبة الطويلة التي امتدت إلى قرون عديدة، وتداخلت فيها العوامل والأسباب والمصالح الإستراتيجية التي جعلت الصراع بين الدولتين ضرورة وأمرأ لا مفر منه، وحتمية تاريخية فرضها منطق القوة والعظمة والتنافس التجاري والاختلاف الديني والثقافي والرغبة في مد النفوذ والسيطرة.

لقد كان لهذا الصراع الطويل والمرير نتائج مباشرة على الدولتين، اللتين تربط بينهما حدود مشتركة، كانت عرضة للمد والجزر وعدم الاستقرار على حال. فقد قدمت الدولتان على المدى الطويل أعداداً هائلة من القتلى والأسرى، خلال الحروب الطويلة والمريرة التي نشبت لمدد طويلة. كما أن اقتصاد الدولتين بقدر ماتحكم في قيام هذا الصراع فإنه قد تأثر به كثيراً، ولم يتوقف التأثير على المناطق الحدودية فقط، وإنما كان يتجاوزه في أحيان كثيرة إلى المناطق الداخلية والولايات البعيدة،

وكانت جيوش ومقاتلو كلتا الدولتين تصل أحياناً إلى قلب الدولة الأخرى، وتعرض عاصمتها للسقوط.

ولعل التأثير البعيد المدى لهذا الصراع هو الوضع الذي أضحت عليه الدولتان عسكرياً واقتصادياً في أعقاب انتهاء الحروب بينهما وتوقيع معاهدة السلام، حيث إن الإنهاك بجيوشهما واقتصادهما بلغ مداه، حتى أن سقوط دولة فارس، وتراجع دولة الروم (البيزنطيين) أمام جحافل المسلمين بالرغم من قلة عددهم وعتادهم كان سريعاً وسريعاً جداً.

على أن السؤال الذي يفرض نفسه هنا ونحن نركز في هذا البحث على الفصل الأخير من الصراع البيزنطي/ الفارسي هو:

كيف استطاع الإمبراطور هرقل أن يحقق هذا الانتصار ويصل إلى قلب الأراضي الفارسية ولا يتوقف إلا أمام أسوار المدائن، وماهي العوامل التي ساعدته على تحقيق ذلك؟

لا بد أن هناك أسباباً وعوامل كثيرة ولعل منها:

١ - أن الإمبراطور هرقل ألْبَسَ مجهوده الحربي الصبغة الدينية، حيث أعلن عند خروجه أنه ذاهب للحرب للدفاع عن المقدسات النصرانية التي انتهكت في بيت المقدس، واستعادة صليب الصليبوت الذي سلب من القدس، حتى أن كثيراً من المؤرخين الغربيين^(١) يعتبرون هذه الحرب هي أول الحروب الصليبية (١) في

(١) من هؤلاء المؤرخين المؤرخ المعروف وليم الصوري، الذي كتب عن الحروب الصليبية، وفي مقدمته لهذه الحروب يشير إلى حملات هرقل ويعتبرها أول حرب صليبية؛ لمزيد من التفاصيل انظر: وليم الصوري. الحروب الصليبية : ترجمة د. حسن حبشي - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١م، ج١، ص٦٣.

التاريخ الأوربي. وبهذه الصبغة حصل الإمبراطور على الدعم المادي والأدبي من الكنيسة ومن رجالها.

٢ - أن الإمبراطور هرقل كان جندياً محارباً، ولذلك فقد أقسم أن يقود الجيش البيزنطي بنفسه، ووضع عدة ابتكارات وخطط جديدة لمقاتلة الفرس لم تُعهد في الأباطرة البيزنطيين من قبل، كما أنه قام بتدريب جيشه جيداً، وألف لذلك كتاباً في الفنون العسكرية.

٣ - كان هم الإمبراطور هرقل أن ينقل الحرب إلى قلب الأراضي الفارسية، وأن يفعل ذلك بأسرع ما يستطيع، ولذلك دارت معظم المعارك الحاسمة في الأراضي الفارسية، وفي الوقت الذي رآه الإمبراطور مناسباً.

٤ - استطاع الإمبراطور هرقل أن يجمع الأعوان والحلفاء من الجماعات والأجناس التي مرت بها جيوشه، وسهل عليه كونهم نصارى أن يؤثر عليهم وأن يستفيد منهم في مجهوده الحربي.

٥ - كان كسرى قد أساء السيرة والعمل، وتشدد في فرض الضرائب على الأراضي التي سبق وأن استولى عليها وعلى أهلها من النصارى، ولذلك فإن انقلابهم عليه وانضمامهم إلى هرقل كان مؤكداً بالرغم من خلافهم المذهبي أحياناً مع الإمبراطور البيزنطي.

٦ - أسلوب القتل والحرق الذي كان يتبعه الفرس ضد المدن التي كانت تسقط في أيديهم كان منفراً منهم وداعياً إلى عدم الإخلاص لهم وانتهاز أول فرصة للانقلاب عليهم وهو ما استغله الإمبراطور هرقل.

٧ - تمكن الإمبراطور البيزنطي من قطع خطوط الاتصال بين كسرى وبين جيوشه مما كان له أثر كبير في حسم الكثير من المعارك.

٨ - أحسن الإمبراطور هرقل الاستفادة من المال الذي توافر له عن طريق الكنائس، وذلك بشراء الحلفاء وصد الأعداء (الآفار) الذين كانوا يحاولون إسقاط القسطنطينية وإفساد محاولة الفرس للاتصال بالآفار والتحالف معهم ضد الإمبراطور البيزنطي.

٩ - استفادة الإمبراطور هرقل من الصراعات والخلافات السياسية التي سادت البلاط الفارسي، وعلمه بها، وتوظيفها لتحقيق الانتصار النهائي على الفرس.

وإذا كان هذا الصراع في فصله الأخير انتهى بتوقيع معاهدة سلام وصلاح أعاد بموجبها الفرس كل الأراضي التي سبق وأن استولوا عليها، إلا أن توقيع هذه المعاهدة سبقته عدة انتصارات ساحقة حققها الإمبراطور البيزنطي مثلت أثقل ضربة وجهها إمبراطور روماني إلى الفرس طوال هذا الصراع مما جعل الاستسلام وطلب الصلح أمراً لا مفر منه. وبهذا الصلح انتهى ذلك الفصل المرير والطويل من الحروب الفارسية البيزنطية، وبنهايته انتهت صفحة من صفحات النزاع بين الشرق والغرب، لتبدأ صفحة جديدة حيث بدأ الصراع الإسلامي / البيزنطي، والذي ظل قائماً منذ أيام الإمبراطور هرقل إلى سقوط القسطنطينية في يد المسلمين سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م).

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية :

- ابن خلدون، عبد الرحمن . كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الثاني -٠ بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٧م.
- ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين . تاريخ مختصر الدول -٠ بيروت : دار المشرق، ١٩٥٨م.
- ابن المقفع، سايروس . تاريخ بطارقة الإسكندرية، سلسلة التراث العربي المسيحي-٠ القاهرة : دار العالم العربي، ١٩٧٨م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم-٠ القاهرة ، ١٩٦٨م.
- المسعودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر -٠ بيروت ، ١٩٦٥م.

ثانياً: المراجع العربية والمعرية:

- إسماعيل، ليلى عبد الجواد . الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل -٠ القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.
- العريني، د. السيد الباز . الدولة البيزنطية -٠ بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨٢م.
- الشاعر ، د. محمد فتحي . السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي -٠ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م.

- باقر، طه و د. فوزي رشيد، د. رضا جواد هاشم . تاريخ إيران القديم - مطبعة بغداد، ١٩٨٠م.
- بارو، ر. ه. الرومان ؛ ترجمة عبدالرزاق يسري - القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٦٨م.
- بتلر، الفريد . فتح العرب لمصر؛ ترجمة محمد فريد أبو حديد - الإسكندرية : المركز العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.
- بينز، نورمان . الإمبراطورية البيزنطية ؛ تعريب د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد - القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٥٧م.
- توفيق، د. عمر كمال . تاريخ الدولة البيزنطية - الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
- ددلي، دونالد . حضارة روما؛ ترجمة جميل يواقيم الذهبي، فاروق فريد - القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٧م.
- رستم، د. أسد . الروم في سياستهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، جزءان - ط ٢ - بيروت : المكتبة البوليسية ١٩٨٨م.
- كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ٣ أجزاء - بيروت : المكتبة البوليسية، ١٩٨٨م.
- رانسيمن، د. ستيفن . الحضارة البيزنطية؛ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.
- عاشور، د. سعيد عبد الفتاح . أوربا العصور الوسطى - ط ٩ - القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م.

- عمران، د. محمود سعيد . معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
- فيشر، هربرت . أوربا في العصور الوسطى؛ ترجمة محمد مصطفى زيادة، والباز العريني - القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٩م.
- كريستس . د. آرثر . إيران في عهد الساسانيين؛ ترجمة د. يحيى الخشاب - بيروت : دار النهضة العربية ، (د.ت).
- كوليس . ثيودور جيانا . اليونان شعبها وأرضها؛ ترجمة محمد أمين رستم - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م.
- موس، هـ. سانت . ميلاد العصور الوسطى؛ ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - القاهرة : عالم الكتب، ١٩٦٧م.
- هايد، ف . تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى؛ ترجمة أحمد رضا محمد رضا - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م.
- نيكول، دونالد . معجم التراجم البيزنطية؛ ترجمة وتعليق د. حسن حبشي - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م.
- وليم الصوري . الحروب الصليبية؛ ترجمة د. حسن حبشي - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب (خمسة أجزاء)، ١٩٩١م.

ثالثاً : المصادر والمراجع الإنجليزية:

- Theophanes : The Chronicle of Theophanes Canfessor, Byzantine and Near Eastern History (AD 248-913), Edited by : Cyril Mango and Roger Scott, Oxford, 1997.

الطبعة

ذو الحجة ١٤٢٦هـ
يناير ٢٠٠٦م

السنة الثامنة
العدد الثاني والثلاثون

- The Cambridge Medieval History, Edited by : H.M. Gwatkin, J.P Whitney, Volume II, Cambridge, 1967.
- Finlay, History of Greece, Oxford 1877.
- Ostrogorsky, G. History of the Byzantine state, Trans from German by Joan Hassey, Second edition, T.J press, London, 1968.
- Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Wisconsin, 1970.
- Haldon, J.F, Byzantium in the Seventh Century, Cambridge, 1997.